الكربون الأسود

رقم الإيداع
٢٠١٧/٢٦٧١٨
الترقيم الدولي
978-977-85371-1-6

الكربون الأسود - رواية

محمد محمود أبويوسف

غلاف: إسلام مجاهد

إخراج فني: محمد محمود

تصحيح لغوي: محمد أمين

المدير العام: روهندا ناصر

المدير التنفيذي: شادي أبوشهبة

دار لوغاريتم للنشر والتتوزيع

المنصورة – حي الجامعة – امام القرية الأولومبية

Logarithpublish@gmail.com

يمنع طبع هذا الكتاب او اي جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والترجمة، والتسجيل المرئي، والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر

الكربون الأسود

رواية

محمد محمود أبو يوسف

إهداء

إلى الروح التي انتقلت من جسد والدي لتسكن بي منذ انتقاله إلى جوار ربه في عامي السابع ..

وإلى أمي التي كانت دائمًا سندًا لي منذ تلك اللحظة ...

هذه الرواية من وحي الخيال ولا تمت إلى الواقع بصلة وأي تشابه بينها وبين الواقع فهذا من قبيل الصدفة البحتة لا أكثر...

تحدثكم روحي بأهم فترات حياتي..

وتكشف لكم جانبًا من الصراعات التي تتم في الخفاء .. تصف عالما خفي عن كافة الشعوب ..

فيا من تقرأ كلماتي رجوتك أن تكمل ما بدأته ، وأن تضع في حسبانك ثمن الدماء الغالية التي سالت من أجلك دون علمك .

أدم

إجراءات أمنية مشددة للغاية في كافة أرجاء ساحة بلازا دي مايو.

إجراءات لتأمين وزير خارجية إسرائيل غير معهودة . فجميع الزيارات السابقة لا تحظ بمثل هذا القدر من التأمين ، سواء كانت لمسئولين إسرائيليين أو غيرهم ، لكن الآن نحن في الربع الأول من عام ٢٠٠٨ ، أي لم يمض سوى بضعة أشهر على تلك الواقعة التي حدثت في نهاية العام المنصرم وخلفت كثيراً من الغموض ، الذي لم يفك طلاسمه حتى الآن ، الأمر الذي جعل حكومة ميونيس إيريس تنتفض لتلك الزيارة بناءًا على طلب من الحكومة الإسرائيلية . . . . .

سيارات فارهة سوداء ، تسري في نفوس المارة بافينيدا ٩ دي خوليو الإعجاب والأنبهار ، ويزيد حدة ذلك الأنبهار النوافذ الداكنة ، التي جعلت من الصعب رؤية ما تحجبه خلفها بالسيارة، مما يثير في النفوس الفضول الذي يولد الإثارة تجاه المجهول. تسير السيارات تجاه القصر الوردي ، حيث أنها اقتربت من تلك البوابة

العالية لتجتازها إلى الحديقة الشاسعة التي تتوسطها نافورة مياه ، تفانى صانعها في إبداعها من حيث نقوشها أو تصميمها الفريدان من نوعهما ، مثلهما كمثل باقي أجزاء القصر ، فذلك القصر مشهورًا بروعته الفنية .

توقفت السيارات بالقرب من ذلك الباب الرئيسي للقصر ،فترجل رجال الأمن من السيارات وأحاطوا بسيارة الوزير ،فدنا أحدهم من باب سيارة الأخير ففتحه.

وبعد كلمات الترحيب الدبلوماسية التي لا تخل من الأفق ، كلمات قطعها طلقة نارية اخترقت جبهة الوزير فأردته قتيلا .

هرول قائد حراس القصر إلى الرئيس صارخًا " امِّنوا الرئيس" ،"

ادخلوا الرئيس القصر".

أسرع بعض الحرس إليه فأنشأوا طوقًا أمنيًا حتى ادخلوه القصر ،

حاول آخرون تبين موقع المطلق ، تجول أنظارهم إلى تلك المباني

المرتفعة المقابلة للقصر، لكنهم لم يحظوا بمعرفة مكانه، فيفصلهم عن تلك المباني (شارع افينيدا ٩ دي خوليو) أعرض شوارع العالم على الاطلاق ، المائة وثلاثون مترًا فهذا عرضه ، بالإضافة إلى حديقة القصر الشاسعة ، أضف إلى ذلك كثرة البنايات والشرف بها المطلة على القصر،كل هذا يجعل من الصعب اكتشاف موقع قاتل الوزير الإسرائيلي ....

***

الربع الثالث من عام ٢٠٠٦

يوم جديد يطل على ميونيس إيريس..

يوم ينتظره العالم أجمع، ليس فقط أهل الأرجنتين..

يوم يشع أمل وحياة .. كأنه اليوم المثالي لما سيعلن عنه..

حيث ستعلن شركه (give live) الطبية عن إكتشاف جديد يساعد في علاج السرطان .. المرض الذي يعاني منه الكثيرين ..فعندما أعلنت الشركة منذ قرابة العام عن إكتشاف مادة جديدة تساعد في علاجه ، والجميع يترقب ، خاصة المصابون به ..

إعلان الشركة هذا منذ عام عن المفعول السحري لتلك المادة المجهولة أعطى الأمل للكثير حول العالم..

لكن هذا الأمل مهدد بالقتل ..لأننا نسمع كثيراً عن أكتشافات وإنجازات لشركات عدة ثم نكتشف الحقيقة الصادمة ، إن تلك الإكتشافات والإعلانات مجرد أوهام تبيعها الشركات حتى تكون أكثر شهرة ..

وخاصة الشركات الجديدة، هذا جعل بعض المرضى من سكان

بورتينوز (سكان الميناء) كما يطلق باقي أهل الأرجنتين على سكان بيونيس إيريس ، بالخوف من أن يتشبثوا بالأمل ويكون الأمر مجرد ضجة إعلانية فقط ..

فالشركة حديثة يمكن أن تكون تبتغي الشهرة لذلك اختلقت هذا الأمر..

لكن إذا كان هذا الأمر كذب فيمكن أن يكون له مردود سلبي تجاه تلك الشركة ، يمكن أن ينعكس الأمر عليها وتفقد ثقة الجميع بها ..

العالم ينتظر الحقيقة الفاصلة .. اليوم في المؤتمر الصحفي الذي دعت له الشركة ..رومينا أيضًا تنتظره ..

صحفية شابة مبتدئة ، عاملة بصحيفة متوسطة الشهرة ..و تبتغي ثقة ورؤسائها ، تسعى إلى النجاح والشهرة ، ذكائها يساعدها وجمالها يكملها ، فشعرها الأصفر الذهبي المسترسل على ظهرها اطفى عليها نوعًا خاصًا من الجمال وبريق يلمع في أعين من يراها يذوب في جمالها ،وعيناها الزرقاوتين جعلت الجميع يسبح فيهما ، أضف إلى ذلك

قوامها الذي صنع كمثال تراه للتعجب من قدرة الله في الخلق في أحسن صورة .

كل هذا جعل من اليسير عليها الوصول لمبتغاها .

-المؤتمر الحادية عشر صباحًا ،، الكثير والكثير سيحضر ،، لذلك قررت رومينا أن تعكف أمام القاعة المزعم عقد المؤتمر بها قبل الوقت المحدد بساعة.. وقفت رومينا أمام القاعة منتظرةً أن يبدأ المؤتمر .. لكن الوقت مازال مبكرًا ولم يحضر أحد .. لذا وُجب عليها الأنتظار.

أخذت تنظر إلى جمال المباني بساحة بلازا دي مايو .. الساحة الواقعة في قلب بوينس إيريس ، تتأمل في كازا روسادا (القصر الوردي) الذي يضم رئيس الأرجنتين ..

القصر واقع في الطرف الشرقي من الساحة ..

كذلك تتعجب من شارع (افينيدا ٩ دي خوليو) .. وتتسأل أصمم هذا

الشارع ليمر منه خمسة عشر مليون ونصف المليون القاطنين ببيونيس إيريس في وقت واحد ؟؟!!

_تذهب بمقلتيها إلى شمال الساحة وتتفحص الشارع حتى تصل إلى نهايته بالجنوب وهي تتعجب .. فكلما أتت هنا دهشتها تلك الساحة .. فكأنها تراها للمرة الأولى ..

وتحاول أن تمعن النظر في الجانب الآخر من الشارع فتجد صعوبة في التأكد من تفاصيل المارة .

تحاول التخلص من قلقها قبل بدء المؤتمر لكنها تفشل .. فالحدث كبير على مبتدئة مثلها .

وكيف لها أن تجلس بالصفوف الأولى في المؤتمر لتتمكن من توجية الأسئلة إلى ممثلين الشركة ..تريد بعض الأجوبة على أسئلة قد جالت عقلها من الصباح لتختلقها .

فهي لم تكلف نفسها عناء التفكير وتحضير الأسئلة بالأمس ؛ لذلك جهزت عدة أسئلة لا تليق بهذا المؤتمر وأوهمت نفسها أنها فعلت ما عليها .

الحياة المرفهة التي عاشتها لم تعتد بها على المسئولية والأعتماد على النفس .

لديها حماس لتكن صحفية كبيرة ؟

نعم .. لكنها لا تبذل مجهود لتصل لذلك .

يُخيل لها أن تلك الرغبة ستتحقق بمجرد التفكير بها كما اعتادت على تحقيق رغباتها منذ مهدها .. والآن جل ما فعلته هو الحضور مبكرًا عن الموعد فقط دون التفكير جيدًا فيما ستسأل عنه .. الأمر هذا لا تجد له أسئلة ؟!

كيف لا تجد ؟!

ألم يصل إلى خاطرها أن تتأكد من سلامة المادة المكتشفة تلك ؟

ألم يأت بخلدها أن تسال عن التجارب التي تم إجراؤها عليها للوصول إلى هذه النتيجة .. أنها تساعد بعلاج مرض السرطان .. !

كيف لهذه الفتاة المدللة أن تجهد نفسها بالتفكير في عملها جيدًا . .؟!

نعم ، تسعى لنيل ثقة رؤسائها ،،

نعم ، تمكنت من الحضور إلى مكان المؤتمر مبكرًا ،لكن كل هذه محاولات هشة لتحقيق رغبتها والفوز بثقة مديرها .. لكنها تقنع نفسها بأنها فعلت ما يجب عليها القيام به ..

تلك الفتاة ذات أصل ألماني .. نشأت في باريو لابوكا أكثر أحياء بوينس إيريس غناء ..

تقضي نهارها بالنوادي وليلها بأشهر المطاعم الإيطالية الفاخرة الممتازة بالباريو .. إلى أن بدأ أبيها في توبيخها باستمرار في محاولة منه لجعلها تعتمد على نفسها ، ولعله يصحح ما أفسده تدليله لها ، فآثر أن تبدأ حياتها العملية بجريدة متوسطة ثم تصل إلى الجرائد الأكثر شهرة من تفوقها بعملها ..

دقائق تفصلنا عن بدء المؤتمر..

وصل المراسلين والصحفيين من كل موقع .. حاولت رومينا أن تنال موقع جيدًا بالمقدمة وسط هذا الجمع الغفير ،لكن لغتها الألمانية التي دائمًا ما تخترق لغتها الإسبانية لغة أهل الارجنتين جعلت من أحد منظمي المؤتمر أن يترصد بها لكونه يهودي .. لكن بعد محاولات لمنعها من الدخول .. تمكنت من إقناعه بإدخالها بعد أن استعانت بجمالها ورونقها لإقناع ذلك المنظم ذو الأصل اليهودي الذي يبغض الألمان وكل من يقرب منهم بأي صفة .. حاله كحال غيره من اليهود .

كادت أن تُصدم عندما رأت القاعة ممتلئة تمامًا حتى أنها لم تجد لنفسها مقعد شاغر لتجلس عليه ،حاولت أن تتقدم لتحظ بموضع قدم فمنعها منظم أخر..

أ بعد أن وصلت مبكرًا يكون هذا موقعي .. بمؤخرة القاعة .. ؟!

أيوجد شخص أخر هنا يريد معاقبتي .. !؟!

ظلت هكذا تحادث نفسها لاعنةً المنظمين والشركة بل وجريدتها ..حتى ظهر رجلاً كبيراً بالسن وبدأ يلقى كلمات إفتتاحية ..

_ نرحب بكافه الحضور ،،

نرحب بالإعلاميين المحليين والأجانب ،،

جميعكم جئتم إلينا اليوم لتتأكدوا من صحة حديثنا بشان علاج السرطان باستخدام مادة جديدة سألين أنفسكم ،، هل تلك الشركة صادقة .. ؟

وإن كانت صادقة ، فما مدى فاعلية تلك المادة ..؟

هكذا بدأ مارتين مدير مجلس إدارة الشركة حديثه بطريقةٍ سحرت الجميع وجذبت انتباههم .

صمت الجميع لحظات اشرأبت بها الأعناق ، واتسعت بها الأعين لحظة إخراج مارتين لمادة سوداء من حقيبته .. مادة ليس لها شكل محدد .. مادة تملئها تضاريس . بمجرد ظهورها أمام الجميع نظر كلاً منهم إلى من بجواره متعجبًا ..هل تلك المادة هي المنتظرة .. ؟!

هل هذه المادة التي تشبه بسوادها هذا ليلة لم يزرها القمر قط هي التي ستعطي الأمل والحياة والنور للمرضى .. ؟!

عاد مارتين إلى حديثه بعد أن ترك الجميع في دهشتهم ما يقرب من دقيقة .

يعلم مارتين أن الدهشة ستزول بعد قليل أو ستزيد اكتشافنا تلك المادة بمكان ما ، وأجرينا عليها بعض الأختبارات ، وكنت الداعم لشخص قام بالكثير لنصل لهذه النتيجة،ثم نظر عن يساره إلى شاب يبدو عليه أنه بالعقد الثالث من عمره ، ذا وجه دائري وأنف أفطس وأعين جاحظة وشعر مجعد وجسد نحيف في بدلة رمادية اللون ،أشار إليه قائلاً بتفاخر وهو يقدمه .. :

- هذا ماركس مكتشف المادة والمساهم الأكبر في نجاح تجاربنا ، ثم أعطاه الكلمة بعد أن تراجع للخلف خطوة ..

أعلم أن الأسئلة مزدحمة بعقولكم .. أعلم أنكم متلهفون لمعرفة كافة التفاصيل .. لذلك سأبدأ الشرح في الحال ..

تلك المادة هي أحد صور الكربون الثلاثة لكنها صورة مهملة فجميعنا نعلم جيدًا صورتين له .. :

الرصاص الأسود وكذلك الألماس .

لكن هذه لا ، قال هذا مشيرًا إلى تلك المادة الموضوعة أمامه ،هذه الصورة مكونة من ستون ذرة كربون لكن الجديد أننا وجدناها بأحد الأماكن هنا بالأرجنتين وبها تغيير عن الصورة التي يعلمها كافة الباحثين والعلماء

والأهم أنها توجد في ذلك الموقع فقط لا بغيره .

صمت يعم القاعة .. الجميع متلهف لمعرفة المزيد ،، توقف عن الحديث لحظة كأنه يزيد تعطشهم أكثر ثم تابع ..

الكربون في درجة حرارة الغرفة يكون خاملًا إلى حد ما ، لكنه يبدأ في التفاعل عند درجات حرارة أعلى .. لذلك قمنا ببعض التجارب في

مختلف درجات الحرارة ، وبإضافة العوامل المساعدة على اختلاف أنواعها وبمقادير معينة ومختلفة في كل تجربة .. فأحيانا نضيف عامل مساعد (أ) بتركيز ضعيف عند درجة معينة ثم نعيد التجربة عند درجة حرارة مختلفة أو بتغيير التركيز أو بتغيير العامل المساعد أو بإضافة عاملين مساعدين معاً ثم نتركه مدة معينة حتى وصلنا به إلى صورة سائلة وقمنا بتجريبه على بعض مرضى السرطان ..

كيف لنا أن نطمئن إلى هذه المادة ..؟

بادر أحد الإعلاميين الحاضرين بهذا السؤال الذي كانت إجابته حاضرة لدي ماركوس فسارع مجيبًا .. :

قمنا بتجريبه على مريضين ووضعناهما تحت الملاحظة الدقيقة لمدة تسعة أشهر ولم تظهر أعراض جانبية ..

أتظن أننا عندما أعلنا عن هذا الاكتشاف بالعام الماضي لم نجر تجاربنا للتأكد من سلامة هذا العلاج .. ؟!

- وما صدق حديثك هذا .. ؟

كان هذا مراسل لمحطة تليفزيونية أمريكية شهيرة ، فأجابه ماركوس بكل ثقة قائلاً .. :

-إننا بالفعل أحضرناهما هنا معنا .. وادعوهما بالدخول إلى القاعة ومشاركتنا المؤتمر..

امرأة يبدو من هيئتها ومن كثرة تجاعيد وجهها ولون شعرها الرمادي أنها تخطت العقد السادس من عمرها ، ورجل لا يختلف الكثير عنها كان بجوارها .. بمجرد دخولهما القاعة و إظهار ماركوس الأوراق التي تبثت إنهما كانا مريضي سرطان وشفيا منه ،وفيديو يوضح مراحل علاجهم بهذا الاكتشاف الجديد على شاشة خلفية بدأ التحدث بثقة أكثر ووجه بشوش ..

مارتينا وبابلو زوجين أصابهما سرطان الدم منذ عدة سنوات ، حاولا كثيرًا التخلص منه لكن الفشل كان حليفهما دائمًا، انكبا على الدواء

كباً ، لكن دون جدوى ..

أألآن أجبت على سؤالكم الذي استحوذ على عقولكم بمجرد قولي أننا قمنا بتجريب الدواء على بشر..؟!

فكيف لشخص أن يضع حياته بخطر كخطر إجراء تجارب على نفسه بدواء جديد لم يتم التأكد بعد من سلامته .. ؟!

بدأ بابلو ومارتينا في إخبار الحضور عن معاناتهما بمرضهما ، وكيف مزقهم اليأس كلما فكرا في الفناء نتيجة هذا المرض اللعين ، بل الأسوأ العيش منتظراً الموت بأية لحظة ، لذلك وافقا على عرض ماركوس الجار اليهود الطيب ، الذي طالما أحباه لهدوئه ورزانته وأدبه .. على عكس أبويه وإخوته لم يخطر ببالهما أنه يخفي خلف طباعه تلك وجه أخر لا يريده أن يظهر .. يريد أن يكون هو الوجه الحسن بمنزله حتى لا يفقد أهله كافة الجيران والمعارف .. وبالفعل فاز عندما أخبره بابلو ومارتينا بموافقتهما على إجراء التجربة ، ثم كان النجاح حليفه ..

لم تنقطع الأسئلة من جميع الحضور سواء إلى ماركوس أو مارتين أو مارتينا أو بابلو..

قبل أن ينهي مارتين المؤتمر أخبر الجميع بعد انتهاء حديث ماركوس بأن تلك المادة " الكربون الأسود " لا يعلم مكانها سوى الشركة ، وإنهم لن يعلنوا عنه ، ولهم فقط الحق في إنتاج هذا الدواء وهذا ما وافقت عليه منظمة الصحة العالمية والحكومة المحلية بشرط أن يكون سعره مناسب للفقراء وأن لها الحق في التدخل في تحديد سعره فقط .. وهذا ما وافقت عليه الشركة.

لدي سؤال .. !

كان هذا صوت رومينا الواقفة في نهاية القاعة

نظر ماركوس إلى الصوت الجذاب فوجد صاحبته امرأة فاتنة ولا يعلم لما أثره صوتها فقال بصوت رقيق وبوجه مبتسم .. :

تفضلي .

- نعلم عادةً أن أي مادة طبيعية توجد بالكون لها أكثر من استخدام ..

فهل لتلك المادة استخدام آخر غير الاستخدام الطبي ..؟

***

الإسكندرية.. فبراير.. ٢٠٠٧

مدينة يعشقها كافة المصريين من أقصى الصعيد وحتى القاهرة ، فيأتونها مستمتعون بجوها الرائع بالصيف ، يأتون وكلهم أمل ورغبة في أن يخفف جوها حر الصيف ، فيعودون إلى مدنهم وقراهم ، سعداء بعد أن أخذت أنفسهم جانبًا لا بأس به من الراحة النفسية ، لكنهم يتركونها قبل الشتاء ، فيفوتهم الإسكندرية في ثوبها الشتوي المتألق ، حيث تهدأ شوارعها ، ويتلاعب موج شواطئها مع صخرها المترامي عند بدايتها ، فيتركوا هذا الجمال لأهلها فقط ، فتجد من يركض علي كورنيشها ، ومن يستمتع بالصيد وسط صقيعها ..

في هذه المدينة الساحرة ، العريقة تحديدًا في منطقة – سيدي بشر بحري – بشارع " مسجد سيدي بشر" تقع بناية يفصلها عن البحر اثنان من نوعها ، في الطابق الثالث من تلك البناية تقع شقة ، تقطن بها أسرة مكونة من أم وثلاثة أبناء أنا أكبرهم ، وزوج توفي قبل عامين

هو أبي، شقة أساسها راقي ، دعونا ندخلها وتحديدًا في غرفة المعيشة ، حيث أمي تجلس متابعة التلفاز محدثة شقيقتي :

-أسرعي أخاكي قد حان موعد وصوله .. كانت أمي مشاكسةً يمنى كعادتها .

-إنني أسرع قدر استطاعتي .

-عجباً لكل فتيات اليوم .. !؟ لا تبذلن بأعمال المنزل نصف ما تبذلونه بالثرثرة والتنزه والتزين أمام المرآة .

توقفت يُمنى عن إعداد الطعام، وألقت بنظرة غضب مفعمة بعتاب إلى أمها، ففهمت الأم ما بداخل ابنتها على الفور فتداركت نفسها بضحكة وهي تقول :

- حسنا، لا تحزني هكذا، ثم تابعت بصوت حنون :

يا ابنتي أريد أن أطمئن عليك، فأنتِ لم يبق لك سوى عام دراسي ونصف، ولم تتقني كافة أعمال المنزل من إعداد طعام أو غيره، والخطاب يومياً ببيتنا.

بصوت كدره الملل قالت يمنى :

- أمي.. أتريني قبلت أحدهم لتقلق ..

قاطع حديثهما المعتاد وصولي ..

-ها هو قد جاء.. ألم أقل لك أن تسرعي.

-أمي الطعام أضحى جاهزاً، لم يبق سوى بضعة دقائق للأرز ويصبح جاهزاً .

وجدت أن اليوم يمنى وأمي في مرحلة متطورة من المشاكسة والجدال فحاولت أن أخفف من حدة هذا الجدال ، فربتت على كتف يمنى وقلت :

- سأبدل ملابسي حتى تُعِدِّي الطعام.

ثم توجهت لغرفتي.. وما هي إلا دقائق واجتمعنا ثانيَّة لتناول الغداء،وسرعان ما بدأت أمي حديثها الذي اعتادناه منذ يومين عندما فارقنا أخي أحمد وذهب إلى عمله بالسويس .. بصوت أهلكه القلق قالت .. :

- أترى .. هل أحمد قد تناول غداءه أم لا.. ؟

- حاولت أن اطمئنها وإلا اتركها لقلقها فتحدثتُ قائلاً :

أمى إلى متى ستظلي قلقة على أحمد .. ؟!

إنه الآن رجلاً يعتمد عليه، وليس ببعيد عن هنا.

-أترى أن السويس قريبة من هنا يا آدم!

قالتها بحزن يخنقه قلق الأم على ابن لم تعتد غيابه فابتسمتُ لاستشعاري أنها قاربت على البكاء .. أحمد لم يمض على غيابه سوي يومين أيام، لابد أن تعتادي غيابه، فعمله يستدعي ذلك .

أوشكت الملعقة أن تصل إلى فمي لتفرغ ما بها من أرز حين أمسكت يمنى بمعصمي فجأة بنظرة استعطاف قائلة :

- هاتف أحمد لتطمئنها عليه .

بعد صمت للحظة هيأت بها عقلي لترك الطعام لدقائق معدودة، أزحت مقعدي للخلف لأتمكن من القيام وإحضار هاتفي الذي تركته بغرفتي، وسرعان ما أجاب أحمد على وكأنه يده موضوعه على زر الإجابة بالهاتف ..

-أحمد .. ألم تجد سوي مهنة مهندس نفط لتمتهنها .. ؟ أسرعت أمي إليّ والتقطت هاتفي مني، وتمادت بحديثها معه للأطمئنان عليه. تاركةً الطعام لفترة ، ثم عادت إليه و بشوشة الوجه ،بعد تناول الغداء جلسنا نحتسي الشاي .

-سارة ..إنني لأشتاق لها كثيراً ، أريد أن أراها يا بني. اليوم أمي مشتاقة للجميع ، ليس فقط أحمد ولكنها مشتاقة إلى خطيبتي ، لكني أريد

الذهاب بمفردي ، فأمي لن تجلسَ كثيرًا هناك ببيت سارة ، لكن لا أستطع إلا أحقق رغبتها في رؤيتها ، فقلت مضطرًا .. :

-حسنًا .. ستأتين معي اليوم لنراها فأنا ذاهب إليها اليوم.

-وأنا.. ستتركونني بمفردي في المنزل .. ؟!

فأجبتها على مضض .. :

- لا ، ستأتين معنا .

لم يكن أمامي مفر ، بعد أن وافقت على مجيء أمي معي ..

وما هي إلا ساعة مضت وأصبحنا في سيارتي بطريقنا من سيدي بشر بحري حيث منزلنا إلى سموحة حيث تقطن سارة.

لم أخبر سارة بقدوم أمي وشقيقتي. بل أردت أن أفاجئها. فهي تكن المشاعر الطيبة لهما، حباً لي بالإضافة لكونها صديقة شقيقتي بكلية الصيدلة وسبب معرفتي بها.

استقبلتهما بشوشة الوجه، موردة الوجنتين كعادتها.

بعد جلوسنا مجتمعين.. والدها ووالدتها وشقيقها وشقيقتها وأمي ويمنى ،جلسنا أنا وسارة بغرفة الضيوف بعيداً عنهم.

فعانقت يدي يدها ، وتحدثت روحي مستغلة لساني قائلةً بصوت خافت .. :

-تسحرني نظرة عيناك الزرقاوتين الساحرتين، وملامحك البريئة الصغيرة، حيث أبدع الخالق في تصويرك،وأجاد اختيار جسد رشيق لهذا الوجه الملائكي الصغير..

ابتسمت وانحنت برأسها للأسفل خجلاً فأردفت :

أجمل ما يجذبني إليك هو حياءك هذا، فهو نصف جمال المرأة .

بصوت عذب حاني خافت رائع قالت :

وما هو النصف الأخر..؟! فتحدثت شارحًا :

النصف الأخر هو الشعر المسترسل والجزء المتبقي هو براءة الوجه..

فتحدث فمها الصغير مستفسرًا :

- أهذا رأي جميع الشباب ؟

-بالطبع لا،فكل منا له مقاييسه الخاصة لجمال الفتاة، والجمال أيضاً نسبي ، لفتت هذه الجملة أذنها ، فتوقفت عندها ..

-نسبي .. كيف .. ؟!

-أي يختلف من عين شخص لعين أخر.. شعرت أن مقصد الجملة غير واضح أمامها فأردفت :

على سبيل المثال هناك من يعجب بالفتاة مليئة الجسم وأخرون يحبون الفتاة النحيفة مثلك.. لكنني من النوع الثاني، ولو كنتِ على هيئة غير التي عليها كنت أحببتك أيضاً.. فأنا عاشقاً لهذه الروح بأي شكل خارجي .

لمحت هنا في عيناها بريق أسرني ، ثم وصل إليه أذني كلاما سحرني ..

-حبيبي.. لا أعير أنتباهًا لأي عين سواك.. كما إنني لم أجد غيرك يستحق أن أئتمنه على نفسي. أنت ما تكملني بهذه الدنيا .

عم الصمت كثيرًا بعد كلامها هذا، كأننا لا نريد أن يعكر هذه اللحظة أي جملة أخري حتى انهار الصمت أمام صوتها الرقيق وهي تقول :

أخبرني ماذا حدث بعملك اليوم؟ أريد أن تقص لي كل شيء حتي أستمتع بصوتك وتشاركني حياتك كاملة لا ينقصها أي دقيقة حتي لو كانت هذه الدقيقة بعملك

أجمل ما في الحياة هي وجود امرأة الي جوارك تهتم بكل كبيرة وصغيرة بحياتك حتي عملك ، فتشعر حقا بمعني المشاركة والهدف الاسمي للزواج والاستقرار.

-لم يحدث جديد سوى أنني سأسافر قريباً إلى سيوة لإجراء بعض الفحوص. -

-سيوة.. متى ؟ وكم ستغيب ؟

قالتها بلهفة بعدما اتسعت عيناها فأجبتها والسعادة تغمرني ..

-لا أعلم .. فاليوم أخبرني مديري بهذا وحتى الآن لم يتم تحديد موعد سفري.

– فتسألت ..

-أليس عملك يقتضي أن تكون هنا بمعامل الشركة وليس هناك في حقول النفط ؟!

من كثرة استقراري هنا بمقر الشركة اعتقدت أن منحصر داخل معمل المقر وأنني لا أخرج في أي عمل ميداني.

-نعم ، ولكن أحياناً يقتضي الحال أن يذهب بعض مهندسي الجيولوجيا إلى الموقع لدراسة الموقع جيداً على أرض الواقع، وتوفر لنا الشركة هناك ما نحتاجه من أجهزة كمعمل متنقل.

-قالت بصوت خافت :

-لا أريدك أن تبتعد عني.

اقتربت منها مبتسماً قائلاً :

- ألا تستطيعي أن ترفعي صوتك عندما تقولي شيئاً كهذا ؟!

فعادت تبتسم من جديد، وعادت الحمرة إلى وجنتيها، أستمر حديثنا لساعتين .. مرا كدقيقتين، لم ينهيهما غير رغبة أمي بالعودة إلى المنزل .

بعد محاولات يائسة مني ومن سارة نزلت أمي عن رغبتها بالعودة إلى البيت وجلست ما يقرب من النصف ساعة ثم عادت تطلب العودة إلى البيت فاضطرت هذه المرة أسفًا أن ألبي لها رغبتها وبمجرد وصولنا المنزل حتي قبل أن أصل غرفتي كي أبدل ملابسي بدأت تشاكسني أمي قائلة :

- كنت تريد الجلوس مع سارة أكثر من ذلك .. أليس كذلك ؟

فألتفت إليها ، والقيت إليها بنظرة لوم ، ثم تحدثت غاضبًا :

-أمي لا تطلبي الذهاب إليها مرة أخرى طالما لا تقوي على الجلوس سوى

ثلاث ساعات.

ضحكت أمي ويمنى ، فزادني ضحكهما هذا غضبًا فأردفت :

طوال الأسبوع لدي عمل ولا أراها سوى يوم كل أسبوعين لانشغالها بدراستها وانشغالي بعملي، فانتهزت عطلة منتصف العام لأراها كل أسبوع، وغداً الجمعة ولدي عمل طارئ فذهبت اليوم أملاً بأن يطول حديثنا وأنتي...

فأنهيت حديثي وذهبت إلى غرفتي ..

-أذهب، أذهب إلى غرفتك فهاتفها لتكمل حديثكما الذي قاطعته .

فخرجت مني ضحكة لا إرادية فضحكا على إثرها.

رحلة عمل..

بعد يومين استدعاني مديري بالعمل فذهبت إليه ..

-تقرر ذهابك إلى سيوة مطلع الشهر القادم .

-مطلع الشهر القادم.. ! أي لم يتبق سوى أسبوعين ؛ فاليوم يوافق الخامس عشر من شهر فبراير.. كم تستغرق هذه المهمة ؟

-ليس كثيراً فربما أسبوع .. تبحثون فيه موقعين .

كان هذا حديثي مع مديري بالعمل في مكتبه .

أريد أن أراها قبل السفر، إنها ليست مجرد خطيبتي.. بل حبيبتي، فهي نالت هذه المكانة بعدما تملكت من قلبي فعشها، وتربعت بعقلي فهواها .. منذ رؤيتي الأولى لها مع يمنى بمنزلنا بدأت قصتنا عندما وقعت عيني عليها، فبدأ الإعجاب يفتك بي، وبدأت جولة كنت أشبه فيها برجل استخبارات يسعى لمعرفة كل شئ عن هدفه ، حيث كانت سارة هدفي الذي أحرزته بمجرد مصارحتها لي بحبها، بعد ثلاثة أشهر من

محاولاتي الساذجة لرؤيتها والتقرب إليها .. نعم كانت ساذجة ولكنها نجحت، فَكَمَا فتك بي الإعجاب فعل معها بنفس اللحظة ..

وما هي إلا فترة وجيزة حتى علم الأهل بحبنا وتمت الخطبة منذ الصيف الماضي، كل هذا مر بعقلي لحظة إنتظاري فتح باب شقتها بعدما طرقته.

سرعان ما كنا جالسين بجوار بعضنا البعض ،لكنها لم تعقب بكلمة بعدما أخبرتها بأنني سأقضي أسبوعين بسيوة ، فحثثتها أن تتحدث ، فتحدث لسانها بكلمات كشفت الستار عن قلق

-أشعر بشيء مريب تجاه هذه السفرية يا آدم .

حاولت أن أقلل من هذا القلق فقلت مشاكسًا :

-ما تشعري به هو قلقك من أن يكون معي مهندسة بتلك الصحراء.

فارتسمت بسمة على وجهها فتابعت :

- سارة .. إنك حلم جميل لا أقوى على الصحو منه، فكيف لي النظر لغيرك .. أطمئني، لم ترسل الشركة غير ثلاثة مهندسين "أنا واثنين أخريين " .

دائمًا ما أقتنص أنصاف الفرص بحديثنا حتى أبوح بما يحمله قلبي من حب وحنين تجاهها

-لا أتخيل أنك تنظر إلى أخرى، لكني لا أتحمل مجرد التفكير بأن تكن بمكان بعيد نائي كذلك الذي ستذهب إليه.

-أحب هذه النظرة القلقة علي ..

تسمرت عيني أمام سحر عيناها الزرقواتين وأخذت يدها فرفعتها أمام فمي فلثمتها.

أنفضت جلستنا بعد التي أستمرت لأربع ساعات ، فأسرعت إلى المنزل لأخذ قسطاً من النوم قبل السفر فجراً.

الرحلة..

بعد مرور أسبوع بالصحراء في الموقع الأول ، والإنتهاء من كافة البحوث المطلوبة به ،بدأنا بالصباح في إعداد كافة متعلقاتنا ووضعها بالسيارات للتحرك إلى الموقع الثاني .

-أسرع يا آدم بإحضار ما يلزمنا من طعام من أقرب استراحة، فموقعنا الثاني بعيداً وسيجعلنا نتعمق أكثر بالصحراء .

كان هذا زميلي حسين ..

-حسنا .. أحزم أمتعتنا وكل الأجهزة وضعها بالسيارة حتى أعود.

انطلقت بالسيارة في هذه الصحراء بالطريق الرئيسي الهادئ من السيارات والمارة ، لا يوجد ازدحام هنا مثل الذي يوجد بالإسكندرية أو كهذا الذي يوجد بالقاهرة .

الصباح هنا رائع للغاية. المنظر هنا يسري بالنفس راحة غريبة، بل

تشعرك بأنك تمتلك كل ما تقع عليه عينك.

ما هذا .. !؟

على يمين الطريق سيارة " تويوتا" ذو لون سماوي متوقفة وبجانبها رجل طويل يرتدي قميص أسود وبنطالون أسود من القماش ويلوح يبدو أنه يطلب العون ، توقفت خلف سيارته وقبل أن أهم بالخروج من سيارتي جاء هو إليّ .

-ماذا تريد ؟

بهدوء غريب أجابني هذا الرجل ذو الوجه الواثق من نفسه وعينين تمتلك نظرة قوية .

-نفد وقود سيارتي .. أستسمحك أن تأخذني معك لأقرب محطة وقود .

جسده القوي البنية ، الطويل، عيناه ذواتا النظرة القوية وهدوءه المريب أثار في فضول تجاهه وقلق .. لم أحاول بدء حديث معه، لكن ما هي إلا دقيقة بعد انطلاقنا بالسيارة حتى بدأ هو ..

-آدم .. أعتقد أن لقائنا سيطول .

اتسعت عيناي ، وفتح فمي في حالة من الإندهاش سائلاً نفسي - كيف علم اسمي .. ؟!

لقاءنا سيطول .. !! كيف .. ؟! ولما .. !!

بدأ قلقي تجاهه يزداد. تمالكت نفسي وسألته بنبرة بها بوادر غضب - كيف تعلم اسمي؟ ولما سيطول لقاءنا ؟!-

بهدوئه أجابني :

نحن نعلم عنك ما قد لا تعلمه أنت عن نفسك.

ازدادت دهشتي.. كيف لهذا المخبول أن يعلم عني ما لا أعلمه أنا ، فتابع ..

نتابعك منذ عدة أشهر، ونعلم برحلة عملك هذه .

بدأ الغضب يتملكني - من أنت.. بل من أنتم لتراقبوني .. ؟

-أهدأ.. نحن من رأينا فيك الشخص المناسب للقيام بما نريد .

بعد صفير ناتج عن احتكاك عجلات سيارتي بالأسفلت نتيجة توقفي

المفاجئ قلت بصوت مرتفع قليلاً - لن أتحرك خطوة واحدة حتى أعلم من أنت .. وكيف تعلم عني وعن عملي! ولم تراقبني؟!-

تغيرت ملامح وجهه التي أصبحت مستفزة لي فجأة وهو يقول – أنا الرائد شريف ، ضابط بالمخابرات العامة – وأخرج من جيبة كارنيه يؤكد صحة ما قاله عن هويته .

بعد تأكدي من صفته شعرت بقلق ، فما علاقتي بالمخابرات العامة ؟! وفيما يريدوني ؟!

فكأنه اشتمَّ رائحة قلقي فقال – لا تقلق سيتم إعدادك للقيام بمهمة.

لكن هل كلامه هذا سيوأد قلقي ؟ ، لا أعتقد ذلك .

لم أعقب بحرف على حديثه ، لأنني لا استوعب كيف سأقوم بمهمة ، فسألته :

– وما هي طبيعة هذه المهمة التي تختار لتنفيذها شخص مدني من خارج الجهاز ؟فأجابني قائلاً :

قريباً ستزور مقرنا ، وهناك ستجد إجابة لكل سؤال لديك .

-متى ؟ وكيف ستخبرونني بميعاد الزيارة ؟!- فأجاب علي بحدة :

-هذا لا يعنيك.. فهذا عملنا..

كيف علمت بأنني سأكون على الطريق في هذا الوقت بمفردي ، وهذا لم يكن ليحدث لو لم يطلب مني زميلي هذا .. ؟!

ابتسم سخرية من كلامي وقال :

قولت لك أننا نراقبك ، وكنا منتظرين اللحظة المناسبة التي تكن بها بمفردك المبارك.

ثم فتح باب السيارة وقبل أن يترك السيارة أدار وجهه لي وقال محذراً :

لا أحد يعلم عن حديثنا هذا شيئاً .. لا سارة ولا والدتك ولا يمنى ولا أحمد .

حركت رأسي في إشارة مني أنني سأنفذ كلامه ، ولن أخبر أحد ، ثم أكملت طريقي .

لم أستطع التوقف عن التفكير في هذا الرجل الذي أربكني ، بقيت فيما تبقى من رحلتي متوقع مجيئه بأية لحظة وبأية طريقة ، أقف أحياناً باحثاً في كل إتجاه عنه لكني لم أراه وعدت إلى الإسكندرية تاركًا عقلي بسيوة محاولاً استيعاب ما حدث ، لعله يأتي إليّ بأي وقت بتفسير يريحني .

الترقب..

لم تكن أيامي بعد هذه الرحلة مختلفة كثيراً عن أمرها ، فكنت شاردًا بفكري عن الجميع ، قلقاً أحياناً وأحياناً أخرى مستفسراً . فأنا لم أفهم حتى الآن فيما يريدوني ؟ قال أنني سأنفذ مهمة ، لكن أليس بالمخابرات العامة من ينفذها ؟! وما هي طبيعتها ؟ الأمر برمته مقلق .. صراع بداخل عقلي، يريد التوصل إلى الحقيقة وكشف الغموض ، أريد أن أكشف عن هذا الصراع لسارة لعلها تساعدني في فهم ما يجري، أو لتخفف عني، لكني أتراجع كلما تذكرت تحذيره لي .

يوم يليه آخر ويلحقه ثالث وتدور الأيام ويمر أسبوع على عودتي من تلك الرحلة التي سببت لي كل هذا،فكلما تذكرتها لعنتها ولعنت مديري لتكليفي بها بل وحسين أيضاً الذي طلب مني إحضار بعض الطعام بل لعنت عملي من الأساس .

أعود من العمل وأتناول بعضاً من الطعام معهما دون أن أتحدث بأي شئ ، وأكتفي بالرد إذا سُئلت عن شئ .

أسرع في الولوج إلى غرفتي، فأغرق بتفكيري في ذلك الشخص الذي قلب موازين حياتي بمجرد ظهوره.

حالتي هذه غير المعتادة لفتت انتباه أمي ويمنى ؛ فحاولت الأولى أن تستفسر مني عن السبب فأجبتها :

- لا شيء يا أمي.. أفكر فقط ببعض الأمور بالعمل.

وهي لا تقتنع بهذا الرد ، لكنها لا تجد مفر من السكوت وعدم تكرار السؤال في نفس اليوم؛ لأنها وجدت أنني لا أبوح بما في داخلي ، ولكن تعاود المحاولة في يوم آخر.

كنت جالس القرفصاء بأحد أركان غرفتي في أحد الأيام حينما استأذنت أمي للدخول.

-آدم.. ماذا بك .. ؟

بصوت قلق أجبتها :

-لا شئ يا أمي .. لا شئ .

هي تعلم أن ببكرها أمر يخفيه ، ولا تنتظر أن يعترف به ، فهي التي احتوته ببطنها تسعة أشهر ، كما أنها اتخذت منه صديق دائمًا ، وجعلت منه عمودًا فقريًا للأسرة بعد موت الزوج منذ ما يقرب من عامين .. اقتربت مني ، وجلست بجواري على الأرض ، ثم وضعت يدها على كتفي وقالت بصوت خافت :

- أتوجد مشكلة مع سارة ؟

-سارة .. لا ، لا توجد مشكلة.

سارة .. كم أتمنى لو أحكي لها عما يؤرقني ، ذكرتني بها ، وأنا أشعر بالذنب تجاهها لأنها تعتقد بأن شئ بداخلي أخفيه ، ولكني أنكرت وهي أستمرت على اعتقادها ، فأخذت على خاطرها مني ، لأن بيننا عهد بعدم إخفاء أي أمر.

-لا شئ يعكر صفو حياة الرجل سوى إمراة يا آدم.

كانت هذه يمنى مداعبة لي، وهي فاتحة باب الغرفة قليلاً حتى تتمكن

من إدخال رأسها. فنظرت إليها والبسمة ارتسمت على وجهي إجبارًا

وقلت متعجبًا :

-كإنك لست امرأة !!

-نعم ، هي ليست امرأة. - كانت هذه أمي مشاكسة ليمنى كعادتها ، فكإنهما زوجتين لنفس الرجل ، أو أختان يليان بعضهما في السن وليس بينهما فارق عمر كبير

بشئ من الغضب المحبب لي ولأمي صاحت يمنى :

-ترين هذا يا أمي لأنني لم أتمكن من إتقان بعض المأكولات حتى الآن.

-لا ، بل لم تتقني سوى واحدة أو أثنتين فقط .. أه نسيت.. وتتقنين صنع الشاي أيضاً. جزت يمنى على أسنانها ، وألقت إلينا بنظرة تشتعل غضبًا ثم ردت الباب بقوة تعبيراً عن غضبها، فلم نتمالك أنفسنا من الضحك وبعد دقيقة عادت أمي تقول:

أريدك أن تكون قوياً ، فمهما كان حجم الأمر الذي تفكر به فلا تحزن هكذا ، وأعلم أن الله لا يفعل شيئاً هباءًا ، فلابد أن يكون خلفه خير لا تعلمه ، لكننا نحن البشر لا ولن نعي حكمته أبداً .

قالت ما قالته ثم خرجت من الغرفة دون أن تنتظر تعقيبي على كلماتها ، لكن هذه الجمل ، لفتت انتباهي ، ففكرت في معناها كثيرًا ، فكرت في الأحداث اليومية في حياتنا سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، من الذي يحدثها ؟ الله ، أم أفعالنا ، فإذا كان الله إذا فخلف فعلها حكمة وسبب ، وإذا كنا نحن ، فهذا إختيارنا ولابد أن نأمل عاقبة إختيارنا .

مقابلتي للرائد شريف هذا ، كانت نتيجة طلب حسين مني شراء بعض الطعام والشراب ، إذا هذه المقابلة من صنع الله ..

سأنتظر معرفة الحكمة من هذه المقابلة ..

عندما فكرت هكذا شعرت براحة ، وتدريجيًا لم أعد أفكر في "رجل سيوة " هكذا أسميته.

البداية..

-أذهب الآن إلى مديرك وأطلب إجازة لمدة أسبوعين كاملين، وغداً في تمام التاسعة تكن بمقرنا في حدائق القبة.

هذا ما قاله لي – شريف – في الهاتف ..

لم أستطع أن أعي ما حدث ، وعندما طلبت منه أن يوضح لي لما أسبوعين ، قال لي أنني سأعلم كل شئ في المقر.

أبعد شهر من مقابلة الرجل الغامض يتصل بي الآن .. !!

أبعد أن بدأت أنسي تلك المقابلة ، وذلك اليوم ، يحادثني الأن !!

قلق وخوف يملؤون عقلي ولا أستطيع التفكير، فليس سهلاً أن تتقبل أمر مجهول كهذا ، نعم مجهول ، فأنا لم أعلم أي تفاصيل حتى الآن ، ومع مرور الدقائق تمكنت من عقد هدنة مع مخاوفي وذهبت إلى المدير وطلبت منه إجازة وافق عليها بصعوبة ، بعد أن اختلقت كذبة مرض أمي ، واجراء عملية جراحية لها .

لا أعلم ما ينتظرني غداً ، ولكن إن غدًا ناظره لقريب ، لكن يبقي الآن أهلي وسارة ، ماذا سأقول لهم بخصوص هذين الأسبوعين ؟

قبل دخولي الشقة تصنعت ابتسامة محاولاً أخفاء توتري ، لكن الغريب أن هذه الابتسامة نجحت في إخفاء ما ظننته واضح ، فلم يسألاني عن قلق يبدو علي ، فقضيت ما تبقى من اليوم كعادتي ، تناولت الطعام معهن ثم احتسينا الشاي في جلسة لم تستغرق نصف ساعة أخبرتهما فيها بسفري صباحاً إلى القاهرة إلى مقر الشركة لمدة أسبوعين .

لإجراء بعض الإختبارات على جهاز جديد اشترته الشركة من الخارج ، كان صعب عليهن تقبل هذا الأمر المفاجئ ، لكن يمنى تقبلته بسهولة عن أمي التي رأيت بنظراتها عدم التصديق لأمر هذا السفر ، كل هذا كان يسيراً بالمقارنة برد فعل سارة ، حيث أنها لم تتقبل الأمر نهائيًا عندما أخبرتها به ليلاً بالهاتف ..

- حبيبتي غداً سأذهب إلى القاهرة لمدة أسبوعين .

بعد صمت نتيجة المفاجأة قالت :

أسبوعين .. !! وغداً .. ! تقول هذا لي الآن..!! بنبرة استنكار قالت :

منذ متى تعلم بأمر سفرك هذا ؟-

- اليوم أثناء عملي .

-كيف يخبروك اليوم بأنك ستسافر غداً لمدة أسبوعين ؟!!!- توترت أمام هذا السؤال ، فليس طبيعي أن يتم إخباري بسفري في أمر يخص عملي لمدة اسبوعين ، قبلهما بيوم .. لكني تمكنت من السيطرة على توتري وقلت :

-لا أعلم .. هذا ما حدث ؟

صمتت لحظة تحاول فيها الاستيعاب ثم عادت تقول :

-ولما لم تأتي إليّ اليوم لأراك . ؟!

-أعتذر.. لكن الأمر كان مفاجئ لي ولم أستطع التفكير بشئ .

-لم تستطع التفكير في شئ .. !!

بنبرة حزينة قالتها، فتيقنت أنني أخطئت بحديثي. حاولت أن أصلح ما قولته، لكن الفشل كان نصيبي ، فلست اليوم بحال يسمح لي بترك العنان لقلبي يتحدث ، لأن عقلي أعلن حالة الطوارئ حتى معرفة كافة تفاصيل المهمة التي تم اختياري لها ، ثم أردفت هي :

- لك خطيبة تعشقك. لابد أن تفكر بها قبل سفرك ، فتقابلها لتودعها ، فلو كانت هذه المدة قصيرة بالنسبة لك فهي بالنسبة لي عمراً بأكمله.

هذه الكلمات أحزنتني وأسعدتني ، فحزني على حزنها الذي سببته لها دون قصد، وفرحتي وسعادتي لحبها لي ورغبتها المستمرة في رؤيتي .

هنا طلبت مني أن ننهي المكالمة والغريب أنني وافقت دون تردد .

استمر عقلي محير بين التفكير بهذه المكالمة وبين تفاصيل يوم غد بالقاهرة حتى تمكن مني النعاس ..

المواجهة..

٢٨ مارس ٢٠٠٧

شعرت بتوتر عندما وصلت حدائق القبة ورأيت هذا المركز المحصن " مقر المخابرات العامة "نتيجة وجود قصر القبة بالجهة الشرقية له ومستشفى وادي النيل - التابعة للجهاز - بالجهة الغربية ، وإسكان الضباط بالجهتين الشمالية والجنوبية، فضلاً عن الحراسة المشددة عليه والكاميرات التليفزيونية المسلطة على المنطقة المحيطة ليلاً ونهاراً ، كما أن سورًا يحيط بالمبني يبلغ ارتفاعه حوالي خمسة أمتار..

باختصار ما رأيته يشبه قلعة محصنة تماماً يصعب إختراقها.

اقتربت من بوابة هذا المبنى ، وبعد أن أخبرت فرد الأمن اسمي وأن لدي مقابلة هنا ، تأكد من الأسماء المدرجة بسجل الزائرين ، ثم سمح لي بالدخول بعد أن طلب من آخر مرافقتي إلى مكتب العميد مصطفى حسني .

بعد السير قليلاً اتخذنا المصعد، فضغط على زر طبع عليه رقم ثلاثة

فبدأ الصعود.

كلما صعد متراً زاد اضطرابي، خاصة كلما نظرت إلى الرجل المرافق لي ، نظرته كتلك التي رأيتها في عين" الرائد شريف ".

أخيراً وصل المصعد إلى الدور الثالث .

فتح بابه فشعرت براحة لأول مرة منذ دخولي هذا المبني، يمكن لأنني خرجت من مكان ضيق إلى مكان أوسع .

سيرنا بممر على جانبيه أبواب مغلقة كتب على بعضها مكتب العميد فلان وأخرون العقيد فلان، كما يوجد ممرات جانبية متشعبة من هذا الممر، كنت بحالة استكشاف لهذا العالم المجهول بالنسبة لجموع المصريين .

لم أحاول السؤال عن أي شئ أراه ولكن اكتفيت بالمراقبة فقط ..

توقفنا أمام مكتب كتب بجوار بابه مكتب العميد مصطفى حسني .. فطلب مني المرافق لي أن أنتظر لحظة أمام المكتب حتى يخرج ، وما هي

إلا لحظات حتى خرج وأشار لي بالدخول.

رجلاً جالساً خلف مكتب يتسم بالفخامة ، أختلطت بعض شعيرات رأسه البيضاء بتلك السمراء فزادته وقاراً ، ويبدو على ملامح وجهه الخمرية أنه قارب على إنهاء عقده الخامس.

وأخر جالس أمامه يشبه هذا الذي رأيته بسيوة .. لا بل هو.

-تفضل بالجلوس، فأمامنا الكثير لنناقشه .

كان هذا صوت الرجل الجالس خلف المكتب ..

فتقدمت وجلست على المقعد الآخر المواجه لرجل سيوة.

- أنا العميد مصطفى حسني، وهذا الرائد شريف الذي قابلته بسيوة منذ شهر ثم أشار بيده تجاه الرائد شريف الذي جاهد كي يبتسم .

لم أكن بحالة تسمح لي بالاستماع إلى مقدمات ، كنت أريد الدخول إلى المطلوب سريعًا ، فقلت بصوت ملأه الجدية :

-نعم ، قابلته وأخبرني بأنه تم اختياري للقيام بمهمة ما.. لكن ما هي تلك المهمة ؟

هنا خرج شريف عن صمته وقال :

-مهمتك هذه لن تعلمها الأن.. ستعلمها بعد تدريبك لمدة أسبوع.

تعجبت لما قاله فكيف لي أن أتدرب من أجل شئ لا أعلمه ! فسألته :

-كيف أتدرب من أجل مهمة مجهولة ؟!-

-ليست مجهولة بالنسبة لنا . . هذه الإجابة استفزتني ، لكني تملكت من غضبي وقلت :

-لكنها هكذا بالنسبة لي.. -

- أنت هنا لخدمة مصر.. وما هو إلا أسبوع فقط وتعلمها.. كما أن عدم معرفتك بها حالياً في صالحك وصالح البلد.. هل أنت مستعد للقيام بمهمة مجهولة بالنسبة لك من أجل مصر؟؟-

شئ طبيعي أن أجيب على سؤاله هذا دون تردد ..

-بالتأكيد مستعد..

فأبتسم شريف أخيراً ومعه العميد ، ثم قال الأخير والابتسامة مازالت على وجه- آدم - التدريب لهذه العملية يقتضي إعلامك بها ..

لا أفهم كيف يقتضي التدريب إعلامي بالمهمة ولن يتم إعلامي بها إلا بعد الإنتهاء من التدريب !!! نظر مصطفى إلى شريف ثم وجه نظرته إلي وقال :

-الرائد شريف يختبر مدى قبولك بالمهمة، ومدى حماستك وترددك، لكنك نجحت وبجدارة.

نظرت بغضب تجاه شريف .. ففهم هذه النظرة سريعاً فسارع قائلاً :

-آدم.. الحياة عبارة عن إختبارات متتالية ، فكل يوم نمر بإختبار في عملنا وآخر بحياتنا الإجتماعية.. الآن سأخبرك بالمهمة .

لا أصدق أذني .. هل ما سمعته صحيح.. أخيراً سأعلم المهمة التي شغلت عقلي منذ شهر تقريباً..

-أسمعت عن مادة جديدة اكتشفت حديثاً وتساعد في علاج السرطان وأعلنوا عنها العام الماضي بالأرجنتين ؟ .. نريد إرسالك هناك لإحضار بعضًا منها .

بعد مجهود بسيط تذكرت خبرًا كنت سمعته منذ عدة أشهر عن مادة مكتشفة حديثًا تساعد في علاج السرطان ، لكن ..

-ما علاقة المخابرات بهذه المادة الطبية .. ؟

نظر إلي ، ثم إلى مصطفى ، ثم عاود النظر إلي واقترب بوجهه وقال :

-لها استخدام عسكري بجانب الإستخدام الطبي .

لم تكن هذه بالإجابة الكاملة بالنسبة لي فسألته :

-استخدام عسكري.. كيف .. ؟

أراح ظهره إلى المقعد ثانية وقال :

-غير مسموح لك معرفة أكثر من هذا الآن .

هنا عاد الغضب يضغط علي ثانية ليخرج فقلت بنبرة غاضبة :

ألا تلاحظ يا سيادة الرائد أنكم اخترتموني لأقوم بهذه العملية ، فيجب علي أن أعلم كل شئ يخصها .

تبادل النظرات مع مصطفى للحظات ، ثم تحدث الأخير قائلاً :

هناك تفاصيل غير مسموح بمعرفتها لدى المدنيين ، ولكن تفاصيل خطوات إجراء العملية ستعملها جيدًا .

ألم تلاحظ يا سيادة العميد أنكم اخترتوا مدني لهذه المهمة ؟!

قبل أن يهم شريف بالرد على كلامي تابعت :

ولما تم اختياري للقيام بهذه المهمة .. ؟

فأجابني شريف :

-هذه المهمة غاية في السرية، وعملائنا معروفين إلى حد كبير للموساد الإسرائيلي وأجهزة المخابرات الأخرى كما هو الحال بالنسبة لنا ،فأجهزة المخابرات تعلم كثير من عملاء منافسيها .

صمت لحظة أحاول أن أتقبل ما سمعت ،فليس سهلاً علي أن يتم إخباري بأنني سأقوم بعملية مخابراتية .. لحظات سكون تعم الغرفة ..

فاخترق صوتي السكون بكلماته الموجهه إلى شريف– لما طلبت مني إجازة أسبوعين من العمل –

-لأن العملية ستتم بهذه الفترة ، وسيتم تدريبك لمدة أسبوع والثاني ستقضيه هناك .

- وإذا رفضت القيام بها ؟!

نظر شريف إلى مصطفى بقلق ، وقبل أن يتحدث بكلمة أشار له الأخير بعدم التحدث ولو بحرف ، وقام مصطفى من كرسيه ، وتمشي بضعة خطوات حتى أصبح خلفي ، وضع يديه على كتفي وقال :

– من أولوياتنا حماية المدنيين ، ولم يكن بحسباننا أن يقوم بهذه المهمة فرد من خارج هذا الجهاز، لكن هذه العملية لها وضع خاص ، كما أنها ليست خطرة .

تمشى خطوتين إضافيتين حتى أصبح عن يميني فتابع حديثه :

و إذا تحدثنا عن الخطورة ، فسنجد أنك قمت بمجازفة كبيرة أثناء فترة تجنيدك ..

من الواضح أنهم قاموا بعمل بحث كامل عني وتحريات دقيقة ، فقلت له معقبًا على ما فعلته أثناء فترة تجنيدي بالجيش ..

-ما فعلته لم يكن إجباري ، فعلته طواعية مني .. فسارع مصطفى يقول :

ونحن لا نجبرك ..

نظرت إلى شريف الجالس أمامي وقلت بكل ثقة :

– إذا فأنا أرفض تنفيذ العملية –

اليوم التالي

كافيه " دي لابيه " محطة الرمل

نسمات هواء تتحرش بعطر مليكة فؤادي ، فتوقفها أنفي لتستخلص منها العطر ، ثم تتركها تعبر خائبة الأمل ، سارة جالسة أمامي واضعة وجهها على كفها ، وتتابع عيناها حركة مياه البحر ، والسيارات على الكورنيش ، وأنا مستمتع لرؤيتها جالسة أمامي على نفس الطاولة ونفس الكافيه الذي جلسنا فيه أول مرة والمحبب لنا حيث أننا كلما جئنا هنا تركنا الطابق الأول والثاني بالكافيه وفضلنا الجلوس أمامه وفي الصف الأول على الشارع حتى نستمتع بهواء البحر ، لكن هذه المرة زاد الغروب جمال اللقاء ،استمر بنا الحال عدة دقائق تنتظرني أتحدث فأنا من طلبت منها الخروج ، وجاءت هنا حتى يسهل عليّ مصالحتها بعد أن أخذت على خاطرها مني بسبب سفرية القاهرة ، هي سابحة في صورة البحر الزرقاء التي لا نهاية لها ، وأنا غارق في عيناها التي تشبه البحر والأعمق من المحيط ، رافضًا كل يد تمد لتنقذني من الغرق ،

فأنا سعيد به .. الشارع لا يخل من المارة والسيارات وجميع الطاولات بجوارنا بها أشخاص ، لكني لا أرسواها ولا أسمع سوى صوت زفيرها الذي أتنفسه ببحرها فيعطيني الحياة ويحول الغرق إلى غوص ، انتشلني صوت النادل من عالمها الذي سألني عما نريد ..

فطلبت لنا الطلب المعتاد في الشتاء وخاصة إذا كنا على البحر وهو " الأيس كريم " .

سارة .. كإن الشركة المصدرة للأجهزة الخاصة بعملنا أحست بنا فأجلت إرسال الجهاز حتى أتمكن من العودة إليك سريعا ورؤيتك ..

أخيرا أدارت وجهها إليّ وقالت :

حبيبي كفانا أننا الآن معًا فالنظر إلى عينيك العسليتين لهو كثير عليّ ، لا أريد أن تنظر إلى الخلف ، وإذا نظرت فانظر على الأشياء السعيدة فقط .

أمسكت يدها وقلت والإبتسامة مزينة لوجهي :

أجمل ما بك هو حبك للسعادة .. !

يكفي أنك جئت بنا إلى هنا ، فأنت تعلم أنني أعشق هذا المكان ، كما أنني أعلم كم تحبني ، خطأ القاهرة أعلم جيدًا أنه لن يتكرر ،فوفر على نفسك الإعتذار فلن يفيد في شئ إذا جاء بعد مسامحتي لك .

أليس جميلاً أن بعشقك ملاك في شكل إنسانة ! سامحتني حتى قبل أن أعتذر منها .

وضع النادل أمامها كوبًا زجاجياً شفافاً من "الأيس كريم" مكون من الحليب والشوكولاتة والمانجو كما طلبت ووضع أمامي كوب آخر مماثل تمامًا لما وضعه أمامها .

بدأنا نتناول منه ، معلقة فالثانية ، ثم قبل الثالثة سألتني عما أريده وينقصني بحياتي

توقفت عن الأكل وعدت بظهري إلى الخلف ، لم أستغرق وقتًا في الإجابة فهي حاضرة – أحب أن أعيش مغامرة بحياتي ، فأنا أكره الروتين ، والحياة المتكررة .

صمت للحظة نظرت فيها إلى البحر عن يميني ثم تابعت :

أنا أحببت سفرية القاهرة وكنت أتمنى أن أقض هناك الأسبوعين ، لكن لا أعلم لما سعدت بعودتي فجأة ..

ستعود إليها عندما قريبا بمجرد وصول الجهاز ، ألم يرسلوك ثانيًا إلى هناك ..

- بالتأكيد سيرسلونني ثانية .

لا أعلم لما يخالجني شعور بالرغبة في التراجع عن القرار الذي اتخذته بالأمس في مقر المخابرات العامة ، لا أعلم لما أنا متردد هكذا ، يمكن

كان رفضي لعدم تقبلي الرائد شريف منذ البداية ، ولأنني شعرت لأنني مراقب في كل شئ ، لا أعلم ..

بعد ساعة تركنا الكافيه وتوجهنا إلى السينما ، حيث شاهدنا فيلم رعب أمريكي ، فطالما أحبت سارة أفلام الرعب ..

٣٠ مارس ٢٠٠٧

أحد مطاعم الزمالك

-كنت أعلم منذ البداية أن آدم هو الاختيار الصحيح ..

أكمل مصطفى مضغ ما بفمه من لحم ثم قال :

-لابد أن تعترف يا شريف بأنك أخطأت ..

نظر شريف إليه في تعجب ، فتابع مصطفى :

-كان عليك أن تستخلص صفات شخصية آدم مما قرأت ، حتى تعلم الطريقة المثالية في التعامل معه ..

قبل أن يهم شريف بالرد على مصطفى أشار الأخير إلى النادل الذي أتى على الفور ، فطلب مصطفى مشروبات غازية .

-ما قرأته بملفه عن العملية التي قام بها خارج الحدود أثناء تجنيده بقوات حرس الحدود في الجيش ، يدل على حبه لمصر وشجاعته ..

- بلي ، لكن العملية كانت باختياره ..

فقاطعه شريف قائلاً :

- ونحن خيرناه .

- هناك فرق كبير، عندما كان بالجيش كان مقيم في وحدته مع ضابط ومجموعة جنود ، متعايشين مع بعض ، فجمعتهم علاقة قوية ، لذلك عندما طلب الضابط واحدًا منهم يستطيع التسلل وتخطي الحدود أثناء المناورات البرية الإسرائيلية ، ليقوم بمراقبة القوات الإسرائيلية عن قرب ، وافق آدم ..

صمت شريف لحظة وكأنه يدير ما قاله مصطفى بعقله ، ثم قال :

- سأذهب إليه غدًا بالإسكندرية ، وأخبره بأن العملية مازالت متوقفة عليه .

قبل أن يهم مصطفى بالرد عليه ، وضع النادل المياه الغازية وانصرف ، مد مصطفى إليها يده وفتحها ، وتحدث وهو يسميها بالكوب الزجاجي الشفاف الموضوع به ثلاث قطع من الثلج

-أريدك أن تعلم أن ما قاله آدم بالأمس ، ليس يعني بالضرورة أنه موافق على العملية ، يمكن أن يكون يريد مغامرة ، ولكن ليس معنا .

- إذا فماذا ترى ؟

نظر مصطفى إلى الصحن الموضوع أمام شريف فوجد أنه لم يأكل منه شيئًا يذكر فقال :

- أريدك أن تنهي طعامك أولاً ثم سأخبرك بما تقوله غدًا .

لم يجد شريف مفر من الأكل حتى يخبره مصطفى بما يريد ..

الإسكندرية

نفس اليوم الساعة التاسعة ليلاً ..

أخترق صوت هاتفي أصوات ضحكنا وصوت التليفزيون ، ليعلن عن رقم غير مسجل لدي يتصل بي ..

- آلو ..

- أنا الرائد شريف ، أريد مقابلتك غدًا في الإسكندرية بعد عملك ..

مجرد ما سمعت اسمه تحركت بعيدًا عن الجميع وعين أمي تراقبني ، وعندما شعرت أنني ابتعدت كفاية تحدثت ..

- ماذا تريد ؟ ألم ينتهي الأمر بعد ؟

- أريد أن أجلس معك جلسه ودية ، لا بصفتي ضابط ،سأنتظرك غدًا في كافيه " ريو " بجليم بعد عملك .

لا أعلم لم وافقته .. هل أريد التراجع عن قراري ؟ لكنه يريد أن يجلس معي جلسة ودية ، ولكن ماذا يوجد بيننا لنجلس جلسة ودية ؟! الأمر محير ، ولكني سأقابله غدًا لأضع حدًا لحيرتي .

٣١ مارس ٢٠٠٧

وجدته منتظرني على طاولة في نهاية الكافيه ، وأمامه كوب قهوة .

عندما رآني ابتسم وقام من مقعده مادًا يده لي في ترحيب لم أعهده منه ، بعد أن جلست وطلبت كوبًا من القهوة البندق بدأ شريف حديثه ..

– أعتذر على اتصالي بك بالأمس .

- لا عليك ، ولكنك هذه المرة هاتفتني من رقم ظاهر عندي وليس رقم مخفي ..

ابتسم شريف وارتشف رشفه من القهوة وقال وهو يرجع بظهره إلى الخلف .

- هذا رقمي الشخصي ، وإذا أردت أي شئ بأي وقت تستطيع أن تهاتفني .

أعلم أن خلف هذا الحديث أمرًا ، فلم أعتد من شريف هذا الحديث في المرات السابقة ، فهو رجل جامد وصريح ولا يعلم شئ بالحياة سوى عمله ، لم أشكره حتى على ما قاله ولم أتحدث حتى تابع هو قائلاً :

-أحب أولاً أن أوجه لك شكر قادتي وبالأخص العميد مصطفى على كتمانك لما حدث في سيوة أو بمقرنا ، وخاصة بعد رفضك التعاون معنا ، جئت إلى هنا خصيصًا لأنقل لك هذا الشكر ولأقول لك أننا مازلنا نريدك أن تعمل معنا ، لكن هذه المرة الأمر مختلف ..

كما توقعت هذه الزيارة لن تكون ودية وهذه البداية لن تكون بلا هدف ، لكني أريد أن أعرف كل ما بجعبته ..

- وما هو الاختلاف هذه المرة ؟

ابتسم شريف لأنه شعر أنني لدي قابلية للاستماع فقال باطمئنان :

- نريدك أن تكون ضمن فريق الباحثين التابعين للجهاز ، فما ردك ؟

هذه المرة الأمر مختلف تمامًا ، لكن لما يصروا على إنضمامي لهم ؟!

- أريد أن أعرف جيدًا ما السبب خلف إصراركم على أن أكون معكم ؟!

اقترب مني شريف ، وأشبك يديه ببعضها البعض ، ونظر حوله وكإنه يريد من يعينه على الكلام ، كالطالب الذي يجد أمامه بالامتحان سؤال لا يعلم عنه شئ فيبحث عن الإجابة لدي زملائه في أوراقهم ، ثم أخيراً تحدث ..

- لقد سمعنا ما قولته في لقاءك أول أمس مع سارة عن رغبتك في القيام بمغامرة ، وكرهك للحياة المملة وحبك للتغيير ، ولا تقلق ، لم نسمع سوى ما يهمنا ، فنحن لا نتدخل في حياتك الشخصية .

لا اعلم لما شعرت برغبة قوية في الموافقة هذه المرة ، فكثيرًا ما تمنيت أن أدخل عالم المخابرات ، لأقتناعي بأن مثل هؤلاء الرجال هم من يقفون خلف الأحداث التي لا نجد لها فاعل ، ولأقتناعي بأهميتهم وبقوة تأثيرهم في الحياة .

-لن أمانع هذه المرة ، لكني أريد أن أعرف آخر ما تم التوصل إليه بشأن الكربون الأسود ؟

- لا أخفيك سرًا ، لم يتم إختيار شخص آخر حتى الآن ، والوقت بدأ ينفذ منا ..

وجدت رغبتي بالقيام بالمهمة تزيد هذه المرة وتضغط على بكل قوة لأوافق ، فلم أستطع هزيمتها هذه المرة .

- أنا موافق على السفر إلى الأرجنتين .

رأيت سعادة تغمر وجه شريف ، وكأن الطالب الذي منذ قليل كان فقد الأمل بالحصول على إجابة سؤال بالإمتحان ، انهى امتحاناته وجائت النتيجة على غير المتوقع لتخبره بأنه الأول على كافة زملائه .

- آدم ، فقد أخبرتك منذ قليل أن الوقت بدأ ينفذ ، لذلك بعد غد سنتقابل أمام مطار القاهرة ، لنذهب إلى مكان ما حيث سيتم به

تدريبك لمدة إسبوع ، وغدًا أخبر مديرك بأن عملية والدتك تم تحديدها ثانية وهذه المرة لن يتم تأجيلها ، وأخبر أهلك أن الجهاز المنتظر وصل إلى القاهرة لذلك ستسافر بعد غد .

أنهينا اللقاء والسعادة التي غمرت وجه شريف منذ قليل ذهبت ليحل محلها جدية وتحدي .. التدريب ..

٢ ابريل ٢٠٠٧

كل شئ تم الإعداد له جيداً .. تم حجز مقعدين على طائرة تنطلق من مطار القاهرة إلى أسوان .

بالفعل وصلنا أسوان بنفس اليوم .. نزلنا ببيت بعيد كل البعد عن أي تجمعات سكنية، فالصحراء من حولنا والنيل أمامنا .

من الصعب عليّ تقبل كل هذا بسهولة ، كنت الفجر بمنزلي ثم بعدها ساعات كنت بمقر المخابرات العامة ومن ثم إخباري بهذه المهمة وأهميتها وها أنا بأسوان وسط مكان مجهول، في بيت منعزل مع - شريف - .

بعد إفراغ السيارة من الحقائب التي أحضرها شريف من القاهرة بدأت أتجول في كافة أرجاء المنزل ، فوجدته على الطراز النوبي الجميل ، من الخارج أمامه سلم مكون من ثلاث درجات ثم بلكون ليس بالكبير ولا بالصغير به طاولة مربعة صنعت من جريد النخيل وزع على جوانبها

الأربعة أربعة كراسي صنعوا مثلها ، ثم باب بسيط ذو لون سماوي خلفة فسحة كبيرة نقشت على حوائطها نقوش ورسومات ، على اليسار مطبخ بسيط بجواره حمام ، ثم على اليمين حجرتي نوم بجوار بعضهما يليهما سلم آخر ، صعدته فوجدت نفسي على سطح البيت أرى منظر مياه النيل الجارية وعلى ضفافه أراض صبغت باللون الأصفر وعلى الجانبين أيضًا يوجد بعض الزروع النابتة طبيعيًا ، سحرني هذا المنظر الذي يشبه لوحة فنية تعبر عن خلق الحياة ، فعبور مياه النيل وسط الصحراء دليل على إستحالة المستحيل ، ومثال رائع لإعطاء الأمل والحياة ، قطع هذا الاستمتاع صوت شريف الذي طلب مني أن أحضر إليه .أثناء تناول وجبة خفيفة دار حديث بيننا

-أعلم فيما تفكر الأن، وأعلم أيضاً إحساسك .. ليس على أي شخص مدني تقبل هذا الأمر بهذه السرعة، وأن يصبح رجلاً عسكرياً في يوم أو أسبوع ، وأن يبتعد عن أهله لكني أطمئنك.. هذه المهمة ستستغرق أسبوعين ، أسبوع هنا والآخر بالأرجنتين وستعود إلى الإسكندرية قبل

انتهاء الإجازة .

نظرت إليه دون أن أقول كلمة ، أو أبوح بما في داخلي من قلق يعتصرني وخوف يتملكني .

توقعت بعد كل المجهود الذي بذلته في الإنتقال من الإسكندرية حتى حدائق القبة بالقاهرة، ثم السفر المفاجئ إلى أسوان ، وأيضاً السير بالسيارة لفترة طويلة من المطار حتى ذلك البيت البعيد ، توقعت أن أنل قسطًا من الراحة ، لكن -شريف- كان جامد بالتعامل معي، فما أن انتهينا من تناول الطعام حتى طلب مني الإنتباه بنبرة كانت الأقسى منذ رؤيته حتى الآن

-من اللحظة يبدأ إعدادك.. الآن سأعلمك بعض الكلمات والجمل العبرية التي ستفيدك برحلتك وبعضًا من الأسبانية وبالصباح ستقوم ببعض التمارين الرياضية التي تحبها وتمارسها باستمرار وأدت إلى جعل جسدك ممشوق هكذا وسنراجع سويًا كيفية استعمال الأسلحة وبعض الأشياء الأخرى ..

-كل هذا ..! بالتأكيد أنت تمازحني .. أقلت أن أمامنا أسبوع واحد فقط قبل السفر وبدء العملية ؟!-

-نعم .. أسبوع .. أريدك أن تعلم أن أسباب اختيارنا لك هو شجاعتك التي أظهرتها أثناء تجنيدك ، وقدراتك العالية على إطلاق النار ولياقتك التي لا بأس بها ، و قدرتك المذهلة على الحفظ وسرعة البديهة التي طالما عرفت عنك، وأيضاً تم قياس معدل ذكائك وكانت النتيجة مرضية.

لم أعقب بحرف عما قاله شريف رغم أن تلك الكلمات زادت ثقتي بنفسي وأشعلت الحماسة بي لبدء التدريب، وأشعلت بداخلي نار التحدي لنفسي ونارًا أخري من أجل إثبات ما قاله الرائد أمام نفسي أولاً وأمام جهاز الاستخبارات ثانيًا.

على الفور بدء يعلمني بعض الجمل الأسبانية ، فيكتبها لي وينطقها عدة مرات ثم أنطقها معه ثم أكتبها وأنطقها بمفردي .. هنا تيقنت أن لدي بالفعل قوة ملاحظة وسرعة بديهة مذهلة ، فكنت استطع كتابه

الجملة ونطقها في خلال خمس دقائق بأول الأمر، وسرعان ما بدأت المدة تقل، وكنا إذا وصلنا إلى ثلاث جمل أعيد كتابتهم ونطقهم ثانية ، وعند الجملة السادسة أعيد كتابه الجمل الست جميعهم، فأتعثر قليلا فيساندني حتى أتذكرهم، لكن الجمل كانت سهلة وأساسية بأي لغة مثل "ما اسمك؟ " "اسمي"....." أين يقع شارع... ؟"

"أنا أصور فيلم تسجيلي عن جمال طبيعة الأرجنتين والحداثة التي وصلت إليها.

توقفت عند الجملة الأخيرة، فلما يعلمني الرائد شريف هذه الجملة ؟!

وما أهميتها ليعيدها على كل عشر دقائق تقريبا ؟!

" انتظر.. غدًا ستعلم أهميتها"

كان هذا رده عندما استفسرت عنها ..

استمرت جلستنا التعليمية هذه منذ الثامنة مساءًا حتى منتصف الليل! ثم طلب مني الذهاب للنوم، وما أن أغلقت عيني حتى جاء موعد الاستيقاظ بالسادسة صباحًا، فست ساعات مرت كست ثوان من

كثرة ما بي من تعب وإرهاق.

بدء يوم جديد به مزيد من الإرهاق والتدريب والإثارة أكثر مما سبقه، حيث بدأ بالركض المستمر لنصف ساعة ثم تمارين رياضية بسيطة، فبعض الحركات الدفاعية البسيطة، ثم راحة مع الإفطار والاستحمام لمدة ساعة لأجد نفسي في تمام الثامنة والنصف أعيد ما حفظته بالأمس فكانت المفاجئة..

هو أنني نسيت كل شئ، مما جعلني أتعرض لعاصفة غضب قوية للغاية من شريف لتزداد الحواجز بيننا أكثر بعد أن بدأت تقل ، لكنه ..

دقائق وتمالك نفسه . بهدوء بدأ يذكرني بتلك الجمل ومع الوقت تذكرتها ، بعد تأكده من حفظي لها بدأ يعلمني جمل أخرى لكن هذه المرة كانت بالعبرية وبنفس الطريقة حتى الثانية عشر ظهرًا، ثم أعطاني نصف ساعة استراحة.

بالواقع لم تكن استراحة حقيقية ، حيث أعطاني تسجيلا صوتيًا له

بتلك الجمل باللغتين وطلب مني سماعها طوال النصف ساعة ..

كالعادة مرت الثلاثون دقيقة كثلاثون ثانية ، لنبدأ تمرين آخر، لكن هذه المرة كان ملاكمة، ثم إطلاق نار و مراجعة على كيفية استعمال الأسلحة، هنا وجدت متعة في التعامل مع الأسلحة. نسيت أو تناسيت كل شئ يشغلني وانتبهت جيدًا معه فكل كلمة يقولها تحفظ داخل عقلي من أول لحظة ، بقيت هكذا حتى انهينا التمارين هذه ، وتوقفنا لتناول الغداء، فانتهزت تلك الاستراحة وهاتفت أمي لأطمئن عليها وكذلك يمنى وأيضًا أحمد.. وبالتأكيد لم أنس سارة .. التي أخبرتها بأنني ليس لدي متسع من الوقت كي أهاتفها كثيرًا كعادتنا ، وأن لدي عمل كثير ، فطلبت منها أن تعذرني ولكنها لم تتغلب على عاطفتها فحزنت لإخباري لها بهذا الأمر.

بعد الاستراحة جلسنا سويًا "أنا والرائد شريف" على الطاولة الموضوعة بالبلكونة الخاصة بالبيت في الهواء الطلق وقت الغروب نحتسي شاي في كوبين ذو لون بني مزركش برسومات بسيطة لبنية

اللون الذي زاده روعة النيل بمياهه الجارية وهذه المساحات الشاسعة بالصحراء ، فدائمًا ما كنت عاشقًا لسحر الطبيعة ومتيم لها في أي مكان ، كما أنني أحب دائما الأماكن الواسعة ..

جلسنا في تمرين جديد من نوعه ويختلف عما سبقه .. وهو بعض النصائح النفسية التي يمكن أن أحتاجها بالمواقف الصعبة، ثم أخيرًا بدء إخباري عن تفاصيل دقيقة للعملية فقال" ستذهب إلى الأرجنتين باعتبارك أحد المهووسين بالطبيعة ومصور أفلامًا تسجيلية كما قلنا سابقًا ، فأردت تصوير فيلمًا لتلك المناظر.. ستكون مهنتك بجواز سفرك مصور أفلامًا ،وستأخذ معك بعض المعدات التي تأكد ذلك، وهناك ستقابل صحفية أرجنتينية رومينا سترشدك إلى الكربون الأسود ثم تفجر موقعها بطريقة لا تلفت الإنتباه.

-سيادة الرائد .. ما علاقة الصحفية بالكربون الاسود؟! ولما سأفجر الموقع ؟!-

-تلك الصحفية خطيبة وعشيقة مكتشف الكربون الأسود.. ستسرقها

من معمله وتعطيها لك، عندما تستلمها منها تفجر الموقع حتى لا تستفيد أية دولة أخرى .

لفت انتباهي أن رومينا تقوم بجزء مهم للغاية في العملية وهي سرقة الكربون ، وأنني مجرد ناقل لها ومفجر للموقع .

اذا كانت رومينا ستحصل على الكربون ، فلما لا تفجر الموقع وتأتي به إلى مصر ؟!

انزل شريف كوب الشاي من على فمه وقال – رومينا فتاة مدللة ، لن تقبل أن تقوم بتفجير ، كما أننا لن نطمئن على العملية إذا قامت بها منفردة .

بعقلي الكثير من الأسئلة المترامية كلاً منها في جزء معين من العملية ، فألتقط واحدًا منهم ووجهتها إلى شريف ..

- أتعلم دول أخرى عن إمكانية الاستخدام العسكري لهذه المادة ؟

نظر إليّ بإبتسامة ثقة وقال :

- بالطبع وأول تلك الدول إسرائيل، التي تخطط الآن لأخذها وتفجير الموقع أيضًا .. هذا ما توصلت إليه مصادرنا .

لا أعلم ما علاقة الابتسامة بما يقول ، الطبيعي أن ما يقوله يسبب قلق وليس ابتسامة .

تبتسم وأنتّ تعلم أن هناك دول تفعل الآن ما نفعله ؟!

قام شريف من كرسيه وطلب مني أن نسير سويًا ، فوافقت أثناء سيرنا وسط الأرض الصفراء في إتجاه النيل قال :

اعتدت في كافة المهام التي قمت بها الا أقلق ، دائمًا ما كان القلق عدوًا للنجاح .

حركت رأسي في إشارة مني بأنني متفق مع كلامه ، ثم سألته ..

عندما سألت عن أهمية الكربون العسكرية قولت غير مسموح لي بمعرفة تفاصيل أكثر مما قلت ، لكنني أجد هذا السؤال ملح على عقلي بشكل كبير ، فأرجو أن تجيبني ..

صمت للحظة حتى أصبحنا على أحد ضفتي النيل ، فأشار إلى صخرة منخفضة عن التربة الصفراء ومرتفعة قليلاً عن المياه ، فجلسنا عليها بجوار بعضنا البعض وقال :

الكربون الذي تم اكتشافه بالأرجنتين ،تبين أنه عند وضعه بمنصات إطلاق الصواريخ ، يقلل من قوة إحتكاك الصاروخ بالهواء فيزيد من سرعته .. نظرت إليه باندهاش وقلت :

أهذا هو فائدة هذا الكربون فقط ؟!-

ابتسم شريف في سخرية قائلاً :

هذه الفائدة البسيطة بنظرك ، هي عظيمة ومؤثرة في حسابات القوى العسكرية – أنهينا حديثنا الخاص بالعملية ، وتطرقنا إلى مواضيع عامة ، ثم حدثته عن أنواع التربة والصخور ثم عدنا بعد ساعة إلى البيت وأكملنا تدريبنا على اللغة الإسبانية ،ليكون اليوم التالي تدريبًا على التصوير واستعمال المعدات التي أحضرها ، ثم بعض الجمل العبرية ومراجعة على الإسبانية مع إضافة جمل وكلمات قليلة على ما تم تعلمه سابقًا.

هكذا استمر بنا الحال طوال خمس أيام كنت بها التلميذ الأوحد لمعلم وحيد يعلمني أساليب خداع وعلم نفس ورياضة وأسباني وعبري هذا كله بفضل ذكاء وحماس وإصراري أنا ومعلمي، إلى أن جاء اليوم السادس أنهينا التمارين الرياضية الصباحية ، وأثناء تناول الافطار في البلكون فاجئني بأننا أنهينا التدريب وأن أمامي أربع وعشرون ساعة لزيارة أهلي بالإسكندرية وأن هناك طائرة ستتحرك الحادية عشرة إلى مطار الاسكندرية حجز لي عليها مقعد .

فاجئني الخبر كثيرا لكنه أسعدني لأنني سأرى أمي ويمنى وسارة وأيضًا أحمد الذي وصل بالأمس المنزل عائدًا من السويس .. لكن ألم تكن مدة التدريب سبعة أيام وليس خمسة ؟! فنحن لم تأخذ أي شئ من اليوم السادس ، لحظات صمت ، لا حديث ولا حركة مني ، وشريف يتابع تناول الطعام ويبدو عليه الاستمتاع ، وكأنه لم يقل شئ منذ ثوان ، ثم رفع عينه عن الطعام ونظر إليّ ، ثم مد يده إلى كوب من عصير البرتقال أمامه رفعة على فمه فلم ينزله حتى أنهى ثلثه تقريبًا ، ثم أعاد النظر لي ثانية لكن هذه المرة تحدث ..

- أردنا أن يتم إعدادك في خمسة أيام وليس سبعة ثم تذهب لزيارة أهلك بالإسكندرية لمدة يوم ليكن السفر باليوم السابع وليس الثامن وتمكث هناك خمسة أيام أيضًا وليس أسبوعاً كاملاً ولم نخبرك بذلك لتأمينك .. كما أنني أردت أن أجعلها مفاجئة لك ، وغداً بتمام العاشرة صباحًا سأقابلك في هذا العنوان ..

مد يده لي بورقة كتب فيها عنوان شقة بالقاهرة ثم أردف ..

بعد هذه المقابلة ستسافر. .الآن بعد علمك مكان المقابلة مزق الورقة.

مزقتها بسرعة غريبة ثم تركت مقعدي وتمشيت بضعة خطوات في البلكون حتى أصبح النيل أمامي وشريف خلفي ، لا أحب التغييرات في مثل هذه الأمور ، أحب أكون على دراية كاملة بكل شئ من البداية ، حتى أهيئ نفسي جيدًا ، ومثل هذا التغيير رغم أنه يسعدني لأنه سيجعلني أرى أهلي وسارة إلا أنه سيسبب لي التوتر والخروج عن تركيزي الكامل بالعملية ، فلا أريد رؤيتهم قبل إنهاء العملية حتى لا أضعف ، كل هذا دار بخلدي حتى ربت شريف على كتفي وقال :

درست كافة تفاصيل شخصيتك ، وأعلم أنك لا تحب التغييرات المفاجأة ونحب الثبات والاستقرار ، ولكننا رأينا أن قضاءك يوم فقط مع أهلك في الإسكندرية سيكون مفيد لك ولنا.

التفت إليه وقلت :

كنت بحاجة لهذا اليوم حتى أرى أمي ، كما أن سارة غاضبة علي لقلة مكالمتي لها بالأيام الماضية .

ستجد بانتظارك أمام مطار الاسكندرية سيارتك التي تركتها بالقاهرة قدها إلى منزلك حتى لا تسأل عنها وتثير الريبة أكثر، فهن غير مقتنعين حتى الأن بسفريتك المفاجئة هذه، ولا تسأل كيف عرفنا هذا الأمر.. وابتسم .

فأسرعت بتجهيز أغراضي والذهاب إلى المطار، فروحي لا تتقبل الصبر حتى يمر الوقت وأصل الإسكندرية حتى أرى سارة .

اللقاء...

أردت أن أفاجئهم بعودتي فلم أخبر أحد ، كما أن عقلي مازال غير مستوعب إنهاء التدريب في هذا الوقت القياسي ؟!

وكيف سمحوا لي بالخروج في فترة الإعداد هذه، وهذا الاندماج والتركيز لزياره أهلي قبل السفر؟!!

هل يشعرون بالقلق تجاه العملية ؟!

لم أستطع فهم المغزى خلف الزيارة الخاطفة لمنزلي، لكني أخيراً تمكنت من طرد هذه الأفكار المقلقة من رأسي قبل أن أدير مفتاحي بالباب لأكون وسط أمي ويمنى وأحمد الذي لم أراه منذ قرابة شهرين عندما ذهب إلى السويس للعمل، فهذه الإطالة بعمله لأنه بالبداية لكن مع مرور الوقت ستقل مده مكوثه هناك.

مشاعر فرحة واندهاش وحزن أيضاً بمجرد رؤيتهم لي .. فرحة لعودتي، وإندهاش لأنهم تفاجئوا لوصولي فكان من المتوقع أن أعود بعد أسبوعين وليس باليوم السادس، والحزن كان لإخباري لهم بأني سأغادر

إلى القاهرة صباح الغد، فاختفت الابتسامة من الوجوه وأصبحت الفرحة ضحية لهذا النبأ الأخير.

بعد تناول الغداء بدأ الأستجواب .. نعم استجواب ..

-لست أفهم كيف تأتي اليوم وتعود غداً.. ؟!- كانت هذه يمنى .

لدينا عمل كثير، فمنذ وصولي القاهرة مطلع الأسبوع وأنا غارق بالعمل يومياً لمدة تتجاوز الإثنا عشر ساعة تقريباً، نعمل بجهد كبير لإنجاز عمل صعب، وهذا العمل أكثر على عاتقي.

توقفت هنا عن الكلام لأنني شعرت إذا أكملت حديثي ، سأصف واحكي ما حدث بأسوان وكم الإرهاق الذي عانيته طوال أيامي الخمس، كما أنني كنت أتحدث وأرى في أعين أمي قلق تشتمه من كلامي زاده شعورها بكذبي، ففضلت أن أكف عن الحديث ، المشكلة أن أمي دائمًا تعلم متي يكذب ومتي يقول الحقيقة ؟!

ثم قالت أمي كاسرة ملل الصمت :

- ربنا يكون في عونك، ويحميك أينما كنت ، وفي أي عمل لك- هنا تيقنت من كشفها لكذبي

فحاولت تغيير مجري الحديث- كيف حال عملك يا أحمد ؟

بدأ أحمد يقص علينا عما حدث معه بعمله ، وخاصة المواقف الصعبة والطريفة ، ويمنى غاصت معه في تلك القصص ، لدرجة أن وجهها صبغ باللون الأحمر من إفراطها بالضحك ،وأمي تدعي الضحك ومتابعة حديث أحمد ، وأنا غارق في أسبوعي المقبل ، لا أعلم شئ عنه ، لكافة التفاصيل التي علمتها عنه لا تكفي ، ولا يسع عقلي أن يرسم حتى صورة عنه ، أحاول توقع أي شئ ، فماذا لو فشلت هناك ؟ وإذا فشلت فما سيكون السبب؟ هل هناك خطورة على حياتي ؟ وإذا كان هناك خطورة لن تكن بمثل حجم الخطر الذي وضعت نفسي به عندما عبرت الحدود أثناء فترة تجنيدي ، كل هذا يدور بعقلي أثناء حديث أحمد الذي لم أنتبه له إلا عندما قال - إذا أردت أن تعلم أكثر

عن عملي وتفاصيل حياتي هناك بالسويس يلزمنا يوماً كاملاً لأقص لك، هذا غير وصفي عن مدينة السويس نفسها الجميلة فأجمل ما بها أهلها، وأروع ما فيهم جمال أسلوبهم، عندما أعود مرة أخرى سنتحدث كثيراً.

ابتسمت وانا أقول بصوت متردد :

- بالتأكيد، بالتأكيد عندما أعود .

- أمي .. أسيكون حديثنا كله عن أحمد وأدم ؟!

ألست ابنتك؟! بنبرة ساخرة كعادتها قالتها ليعود للجميع ابتسامتهم حتى أنا، هكذا اعتدنا يمنى ، التي طالما ملأت البيت ضحكًا وحياة..

استمرت جلستنا وقتا لم أرد حسبانه، حتى أنني كنت أتجاهل الساعة بيدي، حتى هاتفني قلبي مردداً كلمة واحدة" سااااااارة"

استأذنتهم وخرجت قاصدًا بيتها ، بالطريق كنت أفكر كيف توترت علاقتنا في الفترة الأخيرة، وكم نحتاج إلى جو هادئ جميل، لذا قررت مفاجئتها ، فهاتفتها .. أين أنتي ؟

-بالمنزل... لما؟!- صوتها مازال يحمل تجاهي بعض العتاب ، تجاهلت عتابها وقلت :

- انتظرك على كوبري ستانلي .

تغير على الفور صوتها والقى على الفور بالعتاب إلى البحر ، كما سبقه قلبها بإلقاء الحزن

- حقاً .. أنت هنا بالإسكندرية ؟! منذ متي؟ ولما لم تخبرني ؟!

مجرد شعوري بفرحتها التي أحسستها بصوتها لمجرد علمها بأنني بالإسكندرية أعادني إلى الحياة السابقة ، انتشلني من الجو المقلق الذي أعيشه منذ مطلع الأسبوع .

- انتظرك فوق الكوبري فلا تتأخري.

- لما لم تأت إلى المنزل ثم نخرج ؟!

- أعتذر منك فمعي أصدقاء قابلتهم صدفة وأنا بطريقي إليك فأصروا أن نذهب إلى كوبري ستانلي .. ففكرت أن تأتي ونجلس هنا.

لم أكن قد بلغت الكوبري ، ولم أر أياً من أصدقائي إطلاقاً ، لكن لا بأس بي في الارتجال.

كنت بحاجة لوقت لكي أفاجئها .. حيث أنني سأذهب أولاً إلى شارع جمال عبد الناصر لإحضار "تورتة" ولأن الأمر جاء سريعاً فلم أتمكن من وضع صورتها عليها، فكتبت اسمها عليها فقط، وأحضرت بعض الشموع والألعاب التي تستخدم بأعياد الميلاد،ثم أسرعت إلى منطقة ستانلي، فقصدت أحد الكافيهات هناك وطلبت من القائمين عليه تجهيز مكان خاص ، وتزين مدخله ببعض الزينة، لم أكتف بذلك؛حيث أسرعت إلى مطبعة بطريقي لأصنع صورة كبيرة لها كاتبًا أسفلها .. "كرهت النساء حباً لك"

كنت أسارع الوقت. لا أعرف سبباً لهذه الاحتفالية سوى إنني أريد أن أسعدها،كما تسعدني بوجودها معي بالإضافة إلى أني اشتاق لها.

بمجرد دخولنا -الكافية- انطلقت أغنية تذكرنا بأول لقاء لنا ، هذه الأغنية لم تكن ضمن ما طلبت حيث أنها إضافة ولمسة رقيقة من

الكافيه ،لم تستطع أن تتمالك نفسها من السعادة.

عندما رأت المكان المخصص لنا ، فشعرت بشفتين رقيقتين طبعتا قبلة تليق بهما على وجنتي كإنها نسمة ربيع بجو ملتهب الحرارة، وعندما رأت التورتة قادمة من بعيد بعد أن انطفئت الأنوار ولم يعد سوى ضوء الشموع المحيطة بالتورتة في شكل جمالي رائع، وجدت يداها تمتد لتعانق يداي.

عندما عادت الأنوار ورأت اسمها بداخل دائرة من اسمي، فارت من عيناها بعض العبرات ، فرفعت يداها المعانقة ليداي فلثمتها قائلاً بصوت هادئ :

- سارة لا يوجد أي سبب لهذه الاحتفالية غير أني أراك ولأني سأغيب عدة أيام أخري .

بصوت حاني على أثر الفرحة والجو الرائع المتواجدين به اقتربت من أذني وهمست :

- رؤيتك هي الاحتفالية.

تسمرت عيناي أمام سحر عيناها بعد الجملة الأخيرة هذه، فرأيت حناناً جذبني إليها ورومانسية أشتاق لها، وعشقا لي .

قضينا ثلاث ساعات أقرب إلى حلم .. بل خيال لم نشعر بشئ سوى رغبتنا في أن يتوقف الزمن هنا ويختفي الأناس ونصبح بمفردنا في عالم لنا فقط.

بعد أن أوصلتها إلى منزلها، لم أرد أن تختفي من أمام عيني،أريد أن استزيد من رؤيتها، لا أعلم لما كل هذا القلق؟!

لكنه يزداد كلما ابتعدت عني .

هنا تذكرت أن لدي موعد غداً ويجدر بي العودة والنوم فالوقت تجاوز الثانية عشر صباحاً.

الوداع..

نظرة أمي لي لحظة خروجي من المنزل عالقة بذهني طوال طريقي إلى القاهرة.. فنظرتها تلك تعلن عن قلق دفين وشك يقين، قرأت هذا في عين أمي قبل بدء الجزء الثاني والأخير من تلك العملية، وهو الأصعب بل والمجهول تماماً .. لكني أعتمد على المقابلة الأخيرة لإنهاء غموض هذا الجزء إلى حدا ما، هذا اللقاء مع - شريف- أعلق عليه الكثير، آمل أن يهدئني اللقاء حيث أنني بدأت أشعر بقلق يعتصرني وخوف أخشي أن يفتك بي في أي لحظة، متسائلاً أين ذهب ذلك الحماس وتلك القوة التي كنت عليها بأسوان ؟!

أخيراً وصلت المهندسين حيث مكان اللقاء .. وبعد مشقة لا بأس بها توصلت إلى البناية التي تستقر بها الشقة المطلوبة، وها أنا أجتاز مدخلها.

أنفاسي آخذها بصعوبة، صدري يختنق لحظة تلو الأخرى، وأتمنى لو عدت لأمي وسارة وارتمت بأحضانهما أو على الأقل أخبرهما بما أنا

مقبل عليه .

فكيف أخذتني الجراءة حتى وافقت ؟!!

فأنا لست برجل عسكري.. ولن أصبح..

وصلت المصعد بعد جدال بيني وبين قدماي، فهما يأبيان الحركة، يرجواني لكي اعود كي أودع أمي الوداع اللائق لكن ها أنا اضغط على زر طبع عليه رقم خمسة ليبدأ المصعد في الارتقاء، وأنا أراقب تتابع الأرقام الدالة على الطوابق، ومع كل رقم يزيد أسمع دقات قلبي تزداد معه.

توقف المصعد بالطابق المراد،وفتح بابه محدثا صوتاً زاد من خوفي ، نظرت عن يميني وإذ بها الشقة المرجوة .. فتقدمت .. وطرقت الباب .. ففتح الباب وظهر من خلفة شريف مرحبًا بي

- أهلاً آدم.. تفضل .

ثم أسرع بغلق الباب بعد تأكده من عدم تتبع أي شخص لي.

شقة تمتلك أثاث راق يصلح لاستقبال إجتماعات لكبار الشخصيات ،

شقة شاسعة.

- آدم.. اتبعني.

فتبعته حتى وصلنا إلى غرفة بابها جرار ففتح، لأر العميد مصطفى بانتظاري، لأشعر ببعض الطمأنينة.

الغرفة بها مكتب له جانب من الفخامة جالس خلفه العميد، ومكتبه إلى يمينه، وصالونًا عن شماله، وصندوقين بجوار الباب الذي فتح منذ قليل.

- أهلاً بالبطل.

كان هذا صوت قادم من خلف المكتب بابتسامته وهدوءه المعهود قبل أن أجلس قلت بصوت قلق :

سيادة العميد .. أسمح لي .

لم أكمل كلامي حيث قاطعني مصطفي قائلاً :

تشعر بقلق تجاه العملية ، وخاصة لأنك ستبتعد عن والدتك وسارة وروحك معلقة بهما ، لكن ما هي إلا أيام معدودة وتعود سالمًا .

جلس شريف على أحد المقعدين المتواجدين أمام المكتب وثني يده على ثم وضع وجهه عليها ونظر إليّ مبتسمًا ،قائلاً :

-ألا تعلم أن طائرتك ستقلع بعد خمس ساعات ؟!- لم أجبه فتابع هو قلقك هذا أمر طبيعي ، لكني أريدك أن تتذكر جيدًا ما قولناه عن القلق ونحن بأسوان ، فلا تسمح له بأن يهدم ما بنيناه سويًا .

ثم قام من مقعده وطلب مني أن أجلس حتى بعد هو الإفطار فهما منتظراني لنتشارك الطعام قبل سفري .

جلست على المقعد المواجه الذي كان جالسًا عليه شريف منذ قليل ثم نظرت إلى الأرض وأخفيت وجهي بين يداي، فساد الصمت للحظات حتى قاطعه صوت العميد :

- آدم.. أريدك أن تعي أهمية العملية .. لنقل أنك انسحبت .

أوقفتني هذه الكلمة ، فرفعت وجهي ونظرت إلى مصطفي وقلت :

-انسحبت ؟!

- نعم ، انسحبت ، وأننا سنبحث عن آخر لينجز المهمة لكن إلى أن نصل إلى ذلك البديل ونطمئن إليه ونعده جيداً ستصل إسرائيل إلى الكربون .

ثم قام من خلف والمقعد وربت على كتفي وهو يقول :

أنت بانسحابك هذا لن تضيع على مصر فقط نقطه هامة جداً في سباق التسليح مع الغريم التقليدي، بل ستعطيه نقطة يتقدم بها علينا أكثر... أنت الآن تعلم عواقب قرارك.. ولك مطلق الحرية .

عاد الصمت يخيم علينا ثانية، ورحت أفكر في حديث العميد فلم أجد مفر من الاستمرار فلن أتراجع ، ولست من يقبل أن يعطي إسرائيل نقطة تتقدم بها علينا، فدائماً كنا ننظر أن نساعد مصر لتتقدم وننتقد أداء الحكومة وأحياناً الجيش، فها هي الفرصة أمامي.. هل سأكون

رجلاً أم لا؟! هل سأتراجع لرغبتي في البقاء بجوار أمي وسارة.. سارة..

طالما أحببت ان أكرر هذا الاسم منذ رؤيتي لها أول مرة .

رفعت رأسي ونظرت إليه وبصوت هادئ استفسرت :

- أنا لا أعلم ماذا سأفعل بالتحديد بالأرجنتين، ولا أعلم كيف سأهاتف عائلتي طوال الأسبوع يومياً وأنا هناك! بالتأكيد سيعلمون أين أنا عندما يظهر رقمي علي هاتفهم .

ضحك العميد ساخراً ، وتمشى خطوات قليل حتى جلس على أحد و المقاعد الجلدية بالصالون ثم قال :

أنت هنا قبل سويعات من سفرك لأجل ما قولته الآن ؛ فبالنسبة لحديثك اليومي مع أهلك بالهاتف، ستسجل لنا الآن دقيقة أو اثنان بصوتك قائلاً :

أي شئ حتى نتمكن من تسجيل نبرة صوتك، ونحن سنهاتفهم يومياً بدلاً منك طوال مدة مكوثك بالأرجنتين .

تعجبت لسماعي تلك الكلمات ، فكيف لهم أن يفعلوا ذلك.. تابع العميد موضحاً :

- أنت كما نعلم عنك غير متابع تماماً للتقدم التكنولوجي . فالتحدث إلى شخصٍ ما من جهاز بنبرة شخص آخر أصبح أمر بغاية اليسر ومعروف للجميع ليس فقط لدى أجهزة الاستخبارات ، وأيضاً يمكننا جعل شخص ما يقلد صوتك، لكننا نفضل تلك الطريقة ؛ لأنها أضمن... ولا تقلق لن ننس سارة .

قال اسم سارة مبتسماً ، لكنني لم أكن تسمح لي بأن ابتسم لتلك المداعبة كنت أحاول تخيل شكل هذا الجهاز ، وكيف تم إختراعه؟ وكيف لي لم أسمع عن هذا التقدم من قبل؟! كما أن عقلي يحاول جاهدًا توقع أيامي بالأرجنتين التي ستبدأ بعد ساعات قليلة ، ويحاول رسمها أمامي في صور أو في فيلم قصير..

هنا جاء شريف ليخبرنا بأن الإفطار أصبح جاهزًا وينتظرنا على السفرة بالخارج ، فتبعناه حيث السفرة المتواجدة إلى يمين غرفة المكتب ، لم

أتناول سوى القليل منه حتى قال شريف:

- الآن بعد أن أطمئن قلبك ، دعنا نخبرك بتفاصيل أيامك الخمس بالأرجنتين .

رفعت عيني ويدي التي رحبت بهذا القرار فليس لدي قابلية لتناول أي شئ ، من على طبق عسل النحل الموضوع بوسط الطعام وقلت بدهشة :

- خمس ألم تكن سبع ؟!

بابتسامة قال شريف- لم نخبرك بمده مكوثك الصحيحة هناك من البداية أيضاً .

ضجرت لهذا الأمر برغم أن مدة ابتعادي عن أهلي وسارة قلت يومين، لكني ضجرت.

اختفت الابتسامة من وجه شريف وهو يقول :

- أولاً كما أخبرتك ستذهب إلى الأرجنتين باعتبارك تصور فيلماً تسجيلي

عن جمال الطبيعة هناك وروعة بيونيس آيريس المعمارية، أي التقدم الحضاري الذي حدث بالأرجنتين ، هناك ستقابلك صحفية من أهل البلد بحجة إجراء حوار صحفي معك ، وستكون مرشدتك بالبلد ، وفي ليلة اليوم الأخير ستعطيك الكربون، وتذهب أنت إلى موقع المادة الذي ستخبرك به لتقوم بتفجيره قبل ذهابك إلى المطار مباشرة ، ثم تعود إلينا سالماً غانمًا بإذن الله.

هذا الحديث مطمئن إلى حد ما لكنه أضاع بعقلي عدة ومضات كلاً منها تمثل استفهام ، كيف سأصعد الطائرة بالمادة دون لفت الإنتباه بالمطار؟

- سنسلمك صندوق تضع به الكربون .

ثم تضعه بداخل حقيبة ملابسك ولن تلاحظه أية أجهزة بالمطار، فهو مصنع من مادة " الرصاص " تحجب أي إشعاع ينبعث عن أي مادة، وتم صنعه داخل معملنا بالمقر.

أخيراً خرجت مني ابتسامة لا إرادية لشعوري بالقليل من الأمن، فمن

الواضح أنه تم اتخاذ كافة الإجراءات والتدابير اللازمة.

- أهذا الصندوق هو أحد الاثنين المتواجدين بجوار باب غرفة المكتبة .

-بلى ، والثاني به كاميرا متطورة وبعض المعدات الخاصة بالتصوير حتى يثقوا بأنك مصور. ،حاول أن تكون دقيقاً في تصوير كافة المواقع المسموح لك تصويرها، وبالأخص الموقع المحتوي على مادتنا.

- فيما ستفيد صور وفيديوهات لمواقع طبيعية أو ذلك الموقع الذي سيتم تفجيره .. ؟

- من المفيد لنا الحصول على صور لبعض المواقع داخل أي دولة مهما كانت علاقتنا بها، وهذه فيديوهات ستفيدنا أكثر من الصور .. لا تسأل أكثر في هذا الأمر..

بطريقة تحذيرية قال الجملة الأخيرة.. فلم أريد الإطالة أكثر من ذلك في تلك الجزئية .

- هل تعلم الصحفية موقع اكتشاف الكربون ؟

أنهي شريف مضغ ما بفمه من جبن وقال :

-لا ، لكنها ستعلمه الأيام القادمة .

أشياء كثير تدور بخلدي ابحث لها عن تفسيرات ، بعد صمت لدقيقة عدت أسأل ثانية

- كيف سأفجر الموقع وليس معي متفجرات .. ؟

هنا توقف مصطفى عن الأكل وقال :

ستحصل عليها هناك عن طريق الصحفية ثم انشغل ثانيًة بتناول الطعام، لكن ترددت كلمة صحفية كثيرًا بهذا اللقاء.. فتساءلت من هي؟ وكيف سأقابلها؟ فأجابني شريف قائلاً :

- هي تعلم كيف ستقابلك، وهي أيضًا أخبرت الجريدة التي تعمل بها بأنك قادم وأنها ستجري حديث صحفي معك؛ بل سترافقك أيضاً في كافة زيارات بالأرجنتين لتحصل على كافة تفاصيل فيلمك.

-كيف تطلب من جريدتها ذلك قبل وصولي؟- فشرح لي شريف التفاصيل ..

-ذهب فاكس من الشركة المنتجة لهذا الفيلم المزعوم ومقرها هذه الشقة، إلى وزارة الخارجية التي قامت هي الأخرى بإرساله إلى سفارتنا هناك لتنهي كافة التصاريح اللازمة.

قطع مصطفي طعامه ثانيًة لكن هذه المرة لم يقطعه ليجيبني بل ليقول :

أرى أن اكملتم طعامكم الأن ، ثم نكمل حديثنا بعد الإفطار فلا أحب الحديث الكثير أثناء الأكل .

ضحك شريف وخرجت مني ابتسامة لا إرادية جعلتني أعود للأكل مرة ثانية .

بعد إنهاء الإفطار قمت بتسجيل صوتي لمدة دقيقة وتسعة وعشرون ثانية ، ثم راجعنا سريعًا كافة التفاصيل قبل أن أذهب إلى المطار وقبل أن أغادر الشقة تركت هاتفي المحمول للرائد شريف واخبرني أنه سيهاتف أهلي وسارة اليوم ، لكن إحساس غريب بدأ ينتابني عندما

وصلت مطار القاهرة ، أريد أن أسمعَ صوت أمي قبل السفر ، أريد أن أسمع صوت يمنى المشاكسة التي طالما أخرجتني من عز ضيقي بخفة ظلها ، أريد أيضًا أن أسمع صوت سارة ، نعم سأشتاق لها، خمسة أيام بدون سماع صوتها وبدون رؤيتها .. كل هذا كثير عليّ لأحتمله خاصَّة وأن نظرة أمي إليّ بالصباح لا تفارقني، لكنني لا أستطع أن أهاتفهم اليوم، فلم أخبر الرائد شريف بذلك ولابد أن يعلم إذا حدثتهم والآن لن أستطيع إخباره، كما أني أخشي أن أفقد عزيمتي عند سماع صوتهم ..

لذلك بقيت في مقعدي بصالة الإنتظار، منتظراً الذهاب إلى الأرجنتين واضعًا رأسي بين يداي، أفكر فيما ينتظرني خارج مصر، وما هي طبيعة الحياة بالخارج فهذه المرة الأولى التي أسافر خارجها، لطالما أحببت فكرة السفر للخارج لكني لم أقدم على ذلك يومًا.

بطريقنا إلى الطائرة وجدت نفسي أودع كل ما تفع عليه عيني، بنظرات طويلة كأني أودع كل شبراً من أرضها .

أودع سمائها التي أوشكت على الغروب، فما أجمل الغسق بالقاهرة .. !

شعوري بالخوف يزداد كلما صعدت درجة من درجات سلم الطائرة..

صورة أمي ويمنى وأحمد وسارة لا تفارق ذهني، إحساسي بالإشتياق لهم يزداد كأنما مر عاماً دون رؤيتهم.

كلما أقترب من باب الطائرة ، كلما شعرت بثقل وضع على أكتافي.

أخيراً وصلت إلى مدخل الطائرة، وها أنا ألتفت عن يميني لأنتزع المشهد الأخير لسماء القاهرة .

السابع عشر من سبتمبر ٢٠١٠ م..

مقر الموساد الإسرائيلي.. تل أبيب..

إجتماعات كثيرة جرت هنا للوقوف على آخر تطورات إغتيال وزير الخارجية الإسرائيلي بالأرجنتين منذ عام ٢٠٠٨ ولكن كلها مرت دون فائدة فدعونا نرى ما سيحدث هذه المرة ، فمدير الموساد مشتعل غضبًا ..

- كيف يعقل هذا!!! كيف يقتل لنا شخص بحجم وزير خارجية دون أن نعرف من وراء إغتياله؟!-

-سيدي.. جميعنا نعلم أن مصر هي الوحيدة التي لها مصلحة من هذا الإغتيال.

كان هذا أحد مديري الإدارات بالموساد ..

- إذا كنت تعلم أن مصر هي من نفذت العملية .. فهل لديك دليل على ذلك؟ .. هنا رمى مدير الموساد الكرة في ملعبه ليدل على فشله بقوله :

- لم نستطع العثور على أدلة دقيقة تفيد تثبت تورط مصر بهذه العملية.. لكن إغتيال الوزير بالأرجنتين وفي هذا التوقيت يشير إلى إنها مصر رداً على ما فعلناه عام ٢٠٠٧م في عملية

" الكربون الأسود " .

ساد الصمت للحظات في غرفة الإجتماعات الخاصة بمدير الموساد، فالجميع في حالة إحراج..

هذه هي المرة الأولى الذي يكونوا فيها بهذا الضعف وهذا الموقف، فقتل وزير لهم منذ حوالي عامين، وحتى الآن لم يتيقنوا من هوية قاتله ..إجتماعات كثيرة لكبار القادة بالموساد للوقوف على هذا الأمر لعلهم بمرة يتوصلون إلى القاتل ، لكن هيهات . .

يخرجون من كل إجتماع بقرارات وإجراءات جديدة لكن المحصلة - لا شئ -

لكن الضغط عليهم من الإدارة السياسية قوي ، وكل منهم يبرئ نفسه من هذا الإخفاق ويتهم الأخر بالتقصير..

قطع مدير الموساد الصمت الذي خيم على قاعة الإجتماعات وقال موجهًا كلامه إلى رئيس وحدة الإغتيالات :

- أريدك أن تغتال رئيس جهاز الاستخبارات ووزير الخارجية المصريين .. سارع الأخير بقول .. الاثنان!

لم يكن يتأكد مما قاله مديره فهو على يقين مما سمع ، لكنه متعجب من هذا القرار رغم أنه يبغض المصريون بغض لو سمحت له الفرصة للظهور لانفجر بركان ، لكن هذه المرة الأمر جاء بقتل اثنان وليس واحدًا .. أجابه المدير بالتأكيد ..

- نعم .. فيجب أن يكون ردنا أقوي من فعلتهم بكثير.

حاول مدير فرقة الاغتيالات أن يخبئ فرحته بالقرار فقال :

-لكن لم نتأكد حتى الآن من تورط مصر باغتيال وزيرنا .

- لابد من تحرك حتى نهدئ غضب الإدارة السياسية.. فموقفنا في غاية الإحراج .

هنا قاطعهما أحد الحضور قائلاً :

- نقتل منهم ويقتلون منا وندخل بحرب إغتيالات.. وما الذي سنجنيه من هذا سوى القلق على أي مسؤول لنا ، وننشغل كثيراً بتأمين أكثر من اللازم لأي مسئول لنا مهما صغر حجمه. الجميع يستمع ويحاول أن يفكر في الأمر، وقبل أن يهم رئيس فرقة الإغتيالات بالرد، تابع القائل :

- إذا أردت أن تهدم بيت سريعاً ، فأهدمه من الداخل ، مصر بها قلة مسيحية وأغلبية مسلمة، وبين حينٍ وآخر نسمع عن حادثة توشك أن تفجر فتنة طائفية ، لكن سرعان ما ينتهي الأمر سريعاً بطريقة غريبة، لكن نار الفتنة رمادها لا يحتاج سوى نفخ بسيط ليعود ناراً.. وهذا دورنا.

فهم الجميع ما يشير إليه لكن لم يعقبوا بشئ سوي مدير الموساد الذي قال :

-أهل مصر لا يميلون إلى العنف، وبينهم انسجام قوي وترابط.. لن تنجح هذه الفكرة.. كما أننا حاولنا أكثر من مرة تنفيذها لكننا فشلنا .. فقاطعه صاحب الفكرة قائلاً :

- سننفذها هذه المرة يا سيدي بطريقة مختلفة ، كما أننا سنجعل حلفائنا كالعادة يشجبون ويندون بأمر المسيحيين المستضعفين بمصر.. لن ننفخ بمفردنا بالنار.. لا تقلق.

صمت المدير للحظات يفكر بهذا الإقتراح ثم قال :

- كيف سنفعلها هذه المرة ؟

- تفجير كنيسة.. ونلصق التفجير بأحد الجماعات الإسلامية المتطرفة حتى نحرك الحمية بنفوس الشباب المسيحي .. وهنا يأتي دور حلفائنا بتحريك جمعيات حقوق الإنسان ..

كل هذا إذا تم كما يجب ، تكن مكافأتنا كبيرة، بل أكبر من مجرد إغتيال مسؤول أو اثنان لديهم .. وأقترح أن يكون موعد التنفيذ، بليلة عيد لدى المسيحيين حتى نزيد من تعاطف الرأي العام الغربي الضاغط على حكوماتهم.

ابتسامة على كافة وجوه الحاضرين ، على إثرها استشف مدير الموساد موافقة الأغلبية على اقتراح هذا الشيطان .

فنهى الإجتماع بعدما طلب من الشيطان صاحب الفكرة، إعداد ملف كامل لمقترحه وتقديمه له بأسرع وقت ممكن ..

اليوم الأول ...

مع شروق الشمس تطأ قدماي أرض بيونيس آيريس ، أسيكون شروق الشمس بِشارة جيدة لأيامي الخمس هنا؟ لا أعلم .. لكني أتمنى ذلك.

دائماً أثناء سفري من مدينة لأخرى بمصر لا أستطع النوم، وكنت على هذا الحال بالطائرة، فلم أستطع النوم .. كنت أغفو لحظات ثم أفيق حتى وصلت إلى الأرجنتين التي سمعت عنها الكثير.

بعدما قضيت ساعة بالمطار في إنهاء أوراقي، أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يقلني إلى أحد الفنادق المطلة على خليج ريودي لابلاتا ، بعد ما يقرب من الثلث ساعة توصلت إلى الفندق .. فندق ذو طابع معماري مميز، لكن حجمه متوسط ويطل على الخليج مباشرة .. أثناء طريقي من المطار وحتى الفندق لم يلفت انتباهي سوى جمال المباني، فصدق من أطلق على بيونيس آيريس - باريس نصف الكرة الجنوبي- .

عندما وصلت إلى غرفتي المطلة على الخليج شعرت بالتعب والإرهاق نتيجة السفر وقلة النوم حتى أن الإرهاق تغلب على جمال منظر الخليج من شرفة غرفتي بالدور الثالث، فسرعان ما وجدت نفسي أغط بالنوم دون تبديل ملابسي، ولم أشعر بنفسي ثانيةً إلا عندما خيم الليل على تلك المدينة الساحرة.

فذهبت إلى الحمام حتى أبدل ملابسي وأستحم، ثم طلبت الغداء.. فسرعان ما جاء وسرعان ما أنهيته.

بعد عدة كلمات أسبانية قلتها للفتاة الجميلة بالإستقبال كان مفادها " أيوجد مكان جيد أستطيع أن أقض به بعض الوقت ؟"

فأخبرتني أن هناك أماكن كثيرة بالمدينة مخصصة للسهر التي يرقصون بها التانجو ، ففضلت الجلوس على الخليج لأسبح في جماله الذي ازداد ليلاً .. فجلست بأحد ' الكافيهات' المطلة عليه لمدة لا تتجاوز الساعتين ولا يوجد بعقلي سوى الغد .. ماذا سيحدث به؟! ما الذي ينتظرني؟!

غداً ستأتي الصحفية التي لا أعلم أسمها حتى الآن .. غداً ستبدأ المهمة فعلياً .. فأنا بانتظار الغد . . . .

اليوم الثاني ..

أنهيت صلاتي بالعاشرة صباحاً تقريبًا ونزلت مسرعاً ، بعد أن تلقيت إتصالا من الإستقبال أخبروني فيه أن صحفية تدعي رومينا بانتظاري .

فتاة رائعة الجمال ذو شعر أصفر بيدها سيجارة ، قاربتْ على الفناء، بين الحين والآخر تأخذ منها نفساً فاقتربت منها معرفا نفسي بالإسبانية ،و مددت يدي مصافحًا لها ، فبادلتني التحية قائلةً :

- مرحباً .. أنا رومينا.. صحفية ومرشدتك برحلتك هنا.

- ثم اقترحت أن نجلس، لكنها رفضت معللة ذلك بأن طريقنا إلى جبال الأنديز طويل ، وأن علينا التحرك الآن فالوقت ليس بصالحنا ، فتمشينا بجوار بعضنا البعض حتى سيارتها الواقفة أمام مدخل الفندق .

في طريقنا إلى جبال الأنديز حاولت أن أتحدث معها لأعرف من هذه التي ستكون معي خطوة بخطوة فدائماً كنت مؤمناً بمقولة " تكلم حتى أراك". فافتعلت حديثًا ساذجًا ..

- متى سنجري الحوار الصحفي ؟

بابتسامة ساخرة أجابتني :

أعلم أنك لست مصور.. لذلك قبل مجيئي إليك اليوم أعدت عدة أسئلة وأجبت عنها نيابة عنك ..

لا أعلم ماذا أخبرها - الرائد شريف- عني، لكنني واثق أنه لا يعطي معلومة لشخص هباءًا، لذلك لن يخبرها أي معلومات عن شخصيتي الحقيقة .. يبدو أنها ذكية.. لذلك يجب عليّ توخي الحذر معها.. نعم هي تعمل معانا.. لكن لا بأس من الحرص..

لم أجب عليها وفضلت الصمت متابعًا تفاصيل الطريق .. استغرقنا وقتاً طويلاً إلى جبال الأنديز هذه ، فيبدو أنها تقع بأقصى غرب الأرجنتين .. سِرنا أولاً بطرق وسط الحداثة، طرق ممهدة .. عكس توقعي ، فكنت دائماً أظن أمريكا الجنوبية غير متقدمة ، لكن الواقع وما أراه يفيد بعكس ذلك تماماً .

بعد عدة ساعات نسير فيها بطرق جيدة، وصلنا إلى طرق جبلية وعرة غير ممهدة ، فتركنا السيارة وترجلنا، وبدأت هي تحدثني بالإنجليزية بعدما وجدتني ضعيفًا بالإسبانية عن هذه الجبال قائلة :

-جبال الأنديز عبارة عن سلسلة جبلية واسعة طولها سبعة ألاف ومئة كيلومتر ويبلغ عرضها خمسمائة كيلومتر وارتفاعها أربعة آلاف كيلومتر وهي تمتد طول الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية وهي موجودة بسبع دول هم تشيلي وبوليفيا والإكوادور وبيرو وكولومبيا وفنزويلا والأرجنتين ..

فقاطعتها قائلاً :

وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى نشاط أحد البراكين المطلقة للإنديزيت وهي الأعلى خارج آسيا و..

أنا هنا مصورًا ولست مهندسًا جيولوجيًا كي أتحدث هكذا فتوقفت فأكملت رومينا حديثها عن الجبال .. هذه الجبال مقسمة إلى ثلاثة مناطق ، كما أن بها عدة قمم ، ونحن الآن متواجدون بقمة أكونكاغوا وهي مرتفعة عن سطح البحر ستة آلاف وتسعمائة وخمسون متر.

- هل سنصعد هذه القمة المغطاة بالثلج .. ؟

- انتَ من تصور ، وأمامك الجبال فصور كما تشاء .

فانطلقت في كافة الأنحاء أصور كل ما تقع عليه عيني ، وصعدت فوق القمة الثلجية لكن لم أصل حتى نهايتها من شدة الصقيع فوقها ومن إجهاد الطريق ، برغم أن لدي خبرة سابقة في تسلق الجبال ، فهذه

ليست المرة الأولى فلدي سابقة في سانت كاترين بسيناء- بعد انتهائي من التصوير عدنا أخيراً إلى السيارة ..

بسبب طول المسافة إلى جبال الأنديز فكرت أن أتحدث ثانيًا محاولا كسر ملل الطريق ، ومحاولات فهم من ترافقني ، فسالتها :

لما تم إختيار هذه المنطقة دون غيرها للتصوير؟!! ألا يوجد غيرها؟!!! ومن العبقري الذي أختارها؟!!- فالطريق إليها أخذ منا اليوم كاملاً ، كما أنه أرهقنا- فأجبتني بإبتسامة قائلة :

- لا أعلم .. ما يطلب مني أنفذه.

فتحدث لساني باللغة العربية تلقائيًا قائلاً :

- إذاً رجل سيوة لا يترك لي مجالاً للراحة حتى هنا.

– فسألتني عما قلته بالعربية فأجبتها قائلاً :

- لا عليك.. هذا أمر خاص وسأنهيه بمجرد عودتي.

- لا تقلق.. غداً سنزور الغابة شبه الاستوائية، بها شلالات أجوازو هناك ستشعر بالمتعة أكثر من اليوم .. والطرق إليها أيسر من هذا.

-غداً سنرى إن كانت أيسر أم أصعب .

طوال الطريق لم نتحدث كثيرًا حيث كنت نائمًا أحيانًا وأحيانًا أخرى أريحها من القيادة وأقود أنا وهي تنام ، بعدما اطمأن قلبها لحفظي الطريق كما أن جهاز "gps" يساعدني حينما اتعسر ، استمرينا على هذا الحال من التناوب على القيادة والنوم حتى وصلنا إلى الفندق فصليت ما

فاتني من الفروض، وعانقت الفراش عناق العائد من السفر.

اليوم الثالث .. شلالات أجوازو..

الطريق إليها ليس ببعيد كما هو الحال بالأمس.. واليوم ممتع حقاً ، هذه الشلالات رائعة الجمال،فرؤية المياه الجارية بين العشب الأخضر ثم تصب لأسفل يخلق في النفس حالة من السرور والراحة، منظر أثري بمعنى الكلمة ، وها هي رومينا تقص عليّ ما تعرفه عن هذه الشلالات .. هذه الشلالات موجوده هنا وبالبرازيل ، هي عبارة عن عشرون شلال كبير ومائتان وخمس وخمسون آخر صغير ، تمتد بين اثنين إلى سبعة كيلومتر ، معظم هذه الشلالات يقع هنا ولا يوجد بالبرازيل إلا القليل ، لكن المشهد من البرازيل فائق الجمال أكثر من هنا ..

ثم بدأت التصوير وصعدنا فوق الشلالات لنراها من أعلى والتقط لها فيديو وصورًا أيضًا من أعلى ، فرأيت لوحة فنية رائعة أبدع برسمها الخالق ، هذه اللوحة بها مجرى مياه يشبه حرف "اليو" فطلبت منها

أن تنظر إلى هذا المجري فوجدتها تقول – أنه يسمي بالإسبانية Garganta do Diabo" " أي " أخدود الشيطان " .

عندما أنهينا المهمة المطلوبة - التصوير- جلسنا نستمتع بجمال المنظر.

- رومينا.. أنتي أرجنتينية .. أليس كذلك؟

-بلي .. لكن لما تسأل ؟!

- حاولت مراراً وتكراراً تخمين السبب الذي جعلك تقدمين لنا المساعدة ، لكني لم أجده.. ما الذي يجعل فتاة بمثل سنك وجمالك تتورط مع أجهزة استخبارات ؟!-

لحظات من السكون التام مع تغير بملامح وجهها لتنبئ أن ما ستقدم على قوله لهو أمراً محزن.. أشعلت سيجارتها .. تنفستها مرتين ثم أطفئتها بطريقة تنم عن توتر..

ثم أخترق صوتها الضعيف صوت المياه المتدفقة للشلالات ..

- الحب يفعل بنا كل الأفاعيل.. الحب هو ما يجعلنا نتشبث بالحياة.. نقاتل ولا يكون سلاحنا سوى إياه.. متيقنين بالهزيمة.. لكن الهزيمة من أجله أحلى مذاقًا من نصر دونه ..

- الحب !! وما علاقته بما نحن فيه الآن ؟!

- علاقته أنه حب خطأ.. حب مستحيل.. حب من المفترض ألا يكون .. ولن يكون .

-لا أفهم .. ماذا تعني ؟

نظرت للأسفل ثم شخصت بنظرها بعيداً قائلة :

- ماركوس .. ماركوس هو السبب .

-من ماركوس هذا ؟!!

-ماركوس هو مكتشف المادة التي أتت بك إلي هنا .. وخطيبي .. أو ما كنت أريده أن يكون .

أعلم من مصر أنها عشيقة مكتشف المادة ، ولكن الفضول يجبرني على معرفة سبب مساعدتها لنا .

- ماذا تقصدي بما كنت تريديه أن يكون .. ؟

-ماركوس يهودي وأنا مسيحية ..هذا هو كل شئ .. فلا يجوز أن أصبح أمًا لأولاده.. هذا هو سبب صراعه مع أهله بسببي ..

لم أسمع يومًا عن يهودي تزوج من غير دينه ، فالأمر به شئ مفقود ، ولكن

- هل يوجد بالديانة اليهودية ما يمنع الزواج من ديانة أخرى ؟!!

- تنفست الصعداء ثم قالت :

إنه يهودي صهيوني .. بمعتقداتهم يجب أن تكن الأم يهودية لأن الأبناء تابعين لدين أمهم.. حاول كثيراً مع أهله لكنهم رفضوا زواجنا.. فحاول

معي لكي أدخل باليهودية.. لكنني رفضت ومن هنا زاد رفض أهلي له .. أو اتخذوا من ذلك سبباً ظاهرياً للرفض ..

هذه هي المرة الأولى التي أعلم بها أن الابناء في اليهودية تابعين لدين أمهم ، وهذه المشكلة لا يستطع الحب حلها ، فهي كبيرة عليه .

-وما قصة أهلك هي الأخرى ؟

شخصت بعيدًا بنظرها ثم اخذت نفسًا طويلا من الهواء وأخرجته بصعوبة ، وتحدثت دون أن تنظر إليّ قائلة :

- أنا ذو أصل ألماني .. فإذا تغاضى ماركوس عن هذا فلن يتغاضى أهله وأهلي ..

هنا المعضلة الحقيقة ، ليس كونها مسيحية يستحيل هذا الحب أن يصبح زواجًا أو أن يستمر دون الزواج كما هو الحال في ثقافات كثيرة هناك من يفضلوا الاستمرار دون الزواج لكن هنا العلاقة منذ البداية

بها ما يمنع أن توجد وإذا وجدت لن تستمر ، هو حب محكوم عليه بالإعدام قبل أن يولد ، فالأصل الألماني لدى اليهود لا يمكن التعامل معه تحت أي ظرف من الظروف ..

- الآن فهمت.. لكن كيف لهذا الحب العقيم المستحيل أن يوجد من البداية ! أنتما تشبهان قطبان يستحيلا أن يلتقيا ..

عادت تنظر بعيداً يعيناها الجميلتين وهي تقول - الحب دائماً يخترق الحواجز، لا يعرف دين، لا يعرف مستحيل ، بإختصار لا يعرف أي عقبات .

لا أعلم كيف نشأ حب كهذا !! فهذا أشبه بمعجزة ..

- رومينا .. تحبينه ممكن.. لكن كيف لصهيوني أن يحب غير يهودية !! وخاصة ذات الأصل الألماني !

-الحب ليس بأيدينا ، بل ونقطة ضعفنا فيجعلنا نتنازل عن أشياء طالما رأيناها مستحيلة .

- إذاً فالأهل هم سبب انفصالكما ؟

- لا.. كما أننا حتى الآن في علاقتنا .. لكنها جافة .. والسبب في جفافها إضافة إلى معضلة الأهل هو أنه متيم بإسرائيل .. ومؤيد لكل المجازر التي ترتكبها بحق العُزل الضعفاء.. فكيف لي أطمئن على نفسي مع شخص بهذا الشكل " منعدم الإحساس " كما أنه يريد الاستقرار بإسرائيل ويريدني معه .

كنت أسمعها وأتابع تعابير وجهها المعبرة عن يأس وحزن يكسر ضلوع صدرها من أجل الحرية.. لكن استمرار العلاقة حتى الآن هو ما يلفت انتباهي هو أمر غريب بعد كل ما سمعته فسالتها عن شكل العلاقة بينهما حاليًا ..

-أخبريني .. كيف هي علاقتكما الآن؟! فأجابتني قائلة :

- مملة .. لكننا لا نقوى على وضع النهاية لها وكإننا أصبحنا أسيرين للحب.. الحب شئ لعين لا يخرج من القلوب بسهولة.. بل يستوطنها ، لكن ما هو السبب خلف العون التي تقدمها لنا ؟! هذا السؤال ابحث عن إجابة له منذ بدأت حديثها فقلت :

- حتى الآن لم أجد بحكايتك هذه سبباً يفسر لي ما تفعليه الآن من مساعدتنا ؟!

- وأنا لا أجد سبباً يبين لي لما أخبرتك بكل هذا !

لكني سأخبرك مباشرة للسبب الذي جعلني أساعدكم.. أنت بالتأكيد تعلم أكثر مما أعلمه عن فلسطين وما تفعله إسرائيل بها .. لكنك لم تقترب كما اقتربت أنا للصهاينة .. ورأيت كم هي بشعة العنصرية .. وكم كان أجدادي على غير حق أيضًا .

- وما علاقة أجدادك بما يحدث الآن ؟!-

- العالم بأكمله يعلم ما فعله الألمان باليهود قديمًا ، ومعترف بأن ما تم كان من أبشع صور العنصرية ، وأنا لا أنكر هذا .. لأن العنصرية شئ يبغضه أي عاقل ، وأنا لا أر أي فارق بين ما فعله الألمان قديمًا وما يفعله الصهاينة بفلسطين حاليًا ..

- إذاً فالعنصرية هي السبب ؟

- إذا عاملت الصهاينة.. ستبغضهم وستحاول أن تقف بوجههم ؛ لذلك عندما علمت أن ماركوس يريد إعطاء إسرائيل بعضاً من هذه المادة وجدت أنني إذا لم أفعل شيئًا لمنعه فسأكون مشاركة في تلك المجازر الجارية هناك .

أنهيت الحديث بعدما توصلت إلى سبب مساعدتها لنا أعتقد أن هذا سبب كافي ..

عدت إلى الفندق لأسترح فغداً سنصور بعض الأماكن داخل المدينة .. ومن ضمنهم الحي الذي تسكن به رومينا وهنا بالأرجنتين يسمي الحي (باريو) ، وباريو رومينا " لابوكا" .

اليوم الرابع

أستيقظ أهاتفها أحياناً بنصف الليل، وأحياناً أخري لا أنام من كثرة تفكيري بها .. سارة وكفى.. ما بقلبي تجاهها لا يعقله عاقل ولا يستحمله قلب.. أوقات أخشى على قلبي من حبها.

عم علينا الصمت كثيرًا بعد هذه الجمل الصادقة النابعة من قلب اعتصرته الوحشة خلال أربعة أيام لم يرها فيها أو على الأقل سمع صوتها ..

كسرت رومينا الصمت أخيراً قائلة :

- كما توقعت تماماً .. أنت عاشق.. لذا لم تعرني إهتمامًا كباقي الذكور.

قاطعتها سريعاً :

لا ، بل أنا متيم .

عاد الصمت ثانياً وسط علامات إعجاب على وجهها.. ثم عادت لحديثها:

حقاً إذا كان الذكر رجلاً .. لا يشعر ولا ير سوى واحدة فقط .. حتى إذا باعدت المسافات بينهما.. تكون بعقله وقلبه .

-ما المغزى خلف قولك لفظ "الذكور كثيراً ؟!"

-ليس كل الذكور رجال .. فالرجل كلمة لا يستحقها كل ذكر.

-لا أستطع أن أنتظر بعد الغد حتى أراها. أذني حزينة لغياب صدى أنفاسها.. ومقلتاي مع كل ثانية يخيل لهما أنها أمامهما.. كفانا حديثا عنها.. دعينا نعود لمهمتنا ، لكن كيف ستحصلين عليها ؟!-

-غداً سأذهب إليه و أنتهز ضعفه أمام أنوثتي كباقي الذكور.. ثم سأختلق أي سبباً لجعله يخرج من المعمل وأضعها بالصندوق .

كان هذا حديثنا أثناء جلوسنا بأحد المطاعم في باريو لابوكا بعد انتهائنا من تصوير بعض الأماكن بالمدينة ، لتنتهي بذلك مهمتي الثانوية .. المهمة المعلنة .. بينما المخفية ستبدأ غداً..

-غداً سآتي أودعك وأسلمك إياها قبل ذهابك إلى المطار بفترة تمكنك

من إنجاز العمل قبل السفر.

بهذه الجملة أنهت حديثها وانصرفت..

المعمل ..

دخلت رومينا المعمل الخاص بماركوس الموجود بمنزله ، بعد أن فتح لها الباب من من مقعده بالمعمل عن طريق جهاز ، فهو منشغل للغاية في أستكمال أبحاثه ، لكن رومينا بذور الخوف والقلق أن يكتشف ما تنوي فعله بدأت تنمو ، تحاول جاهدة أن تكبح تلك المشاعر السلبية لعلها تنجح في استكمال الصورة الأنيقة التي يظهر بها جسدها الفاتن للغاية ، فهي ترتدي فستانًا أسودًا عارياً يظهر من صدرها الجزء الأكبر وقصير للغاية ، ومن الخلف الظهر عاري تمامًا لا يجد شيئا من الفستان يخبئ جمال ظهرها المثير الناصع البياض ،،

فستانًا يشبه في سواده عتمه الليل وصمته ، لكن بجمالها ونضارتها تشبه القنديل الوحيد في تلك الليلة الغامقة التي بعد قليل سيتغير لونها للون الأحمر الوردي وهذا ما ترمي إليه ، فماركوس ضعيف جدًا أمام رغباته الشهوانية ، وخاصَّة إذا كانت أمامه امرأة بهذا القدر من

الأنوثة والدلال ، كلما اقتربت من باب المعمل المفتوح تتعالى ضربات قلبها ، وتتصاعد أنفاسها .

انحنت عليه وهو جالس على المقعد ، وعانقته من الخلف فطرد فذاب عقله وسط رائحتها النفاذة وطرد العامل واخبره أن يأت في وقت آخر فهذا وقت الجمال والأنوثة ، لم تعطه فرصة حتى يستوعب ، فالجمته بقبلة حارة للغاية في رقبته ، فبدأ يذوب معاها كأنه جليد ، تابعتها بقبلة أخرى بجانب الأولى ثم تالتها بقبلة ثالثة بجوار سابقيها ،ثم بدأت تخلع عنه بالطو العمل الخاص بالمعمل ، خلعه بهدوء وهي لا تعطيه فرصة التحدث أو التفكير في أي شئ كأن عقله اختفى ، فهي لا تكف عن مداعبة شعر رأسه من الخلف بهدوء ورومانسية ، ثم بدأت يداها تتسلل لصدره لتكمل المداعبة ، كعادته لم يستطع تمالك نفسه فقام سريعًا واحتضنها بعنف ، وكاد يقطع جسدها من القبلات ، كأنه يلتهمها ، لم يفكرا أن يذهبا إلى غرفة النوم فهذا غير مهم الآن ، فالآن وهنا ستتم المتعة ، بعد وقت ليس بالقليل كف ماركوس عن رومينا ،

لكن هي لا تعطيه الفرصة فتتمايل عليه ، فيعود عليها ، ثم بعد قليل يكف لكن هي تأبى حتى طلب منها أن تكف فتوقفت وذهب هو يغتسل ، وهي بقيت بالمعمل تنظر إلى معداته ، ترى أنابيب إختبار كثيرة ودوارق جمبعهم بهم مواد مختلفة الألوان ، ولكنها لا تخطئ الكربون الأسود حتى بعدما تغير لونه بسبب الإضافات التي وضعها ماركوس من مواد حفازة وغيرها حتى وصل به إلى الحالة السائلة ،،

بعد مرور ساعة جلسا يتناولا وجبة سريعة وبجترعان من الشامبانيا وهما في حالة من الضحك ، تحدث ماركوس بجملة مهمة وسط هذا الكم من الضحك فقال :

- غدًا سأسافر في رحلة عمل تستغرق يومين ، سافتقدك كثيرًا وسأفتقد الكربون الأسود سبب سعادتي فهو فتح لي أبواب كثيرة كنت أظن أنها لن تفتح مطلقًا ، وسبب مال كثير بدأ يتدفق عليّ .

حاولت صديقتنا أن تدعي عدم الاهتمام وهي تسأل :

- في كل رحلاتك العملية تأخذ معك الكربون الأسود بآخر ما قمت عليه عليه من تعديلات حتى إذا وجدت شئ مهم متعلق به في رحلتك قمت بتجريبه في الحال ، كما أن الشركة توفر لك كافة الإمكانيات لهذا .. قاطعها ماركوس ويبدو سكيرًا قائلاً :

- لن اضيف عليه شيئًا بعد الآن فأنا انتهيت أخيرًا منه وأصبح بالصورة النهائية للإستخدام الآخر .

لم تعلق صديقتنا عن حديثه عن الاستخدام الآخر فهي تعلم ماهيته ، ولكن ما يدعو للشك أنه لأول مرة يتحدث عن هذا الاستخدام ، لكن سريعًا ما ارجعت هذا لكونه حاليًا سكيرًا ، فلعله لا يدري ما يقول ، فهمت بالقيام واخذت بيده و دخلا إلى غرفة النوم وناما ،،

في الصباح الباكر فتحت عيناها الزرقاء بصعوبة على ماركوس يقفل صوت المنبه المزعج ، ويخبرها بأن تجهز نفسها للخروج معه فهو سيوصلها قبل سفره ، في ما يقرب من نصف ساعة كانا قد استعدا

للخروج ، وهي واقفة أمام المرآة بحجة تصليح تبرجها ، وانتهزت فرصة إخباره لها بأنه سينتظرها بالسيارة بالخارج ، فذهبت مسرعة إلى المعمل وبدون تفكير أخذت الكربون ووضعته في حقيبتها ، وخرجت وجدت ماركوس بابتسامته ينتظرها ويشير إليها بأن تركب ، فاعتذرت قائلةً :

- تعلم جيدًا ماذا سيقول أبي عندنا يرانا سويًا ، لذلك سأخذ تاكسي حتى المنزل ، وأنتَ أذهب حتى لا تتاخر.

يعلم ماركوس جيدًا رد فعل أباها فالإثنان يكنان لبعض نفس الاحساس ألا وهو البغض الشديد ، فوافق وودعها وانصرف .

١٨ أكتوبر ٢٠٠٦

مقر المخابرات العامة المصرية ..

رجل طويل القامة يبدو على ملامحه الجدية ،ذو شعر أسود قصير وعينان بنية تمتلك نظرة قوية مليئة بالذكاء والحيوية والإصرار وأنف أفطس ووجه أقرب للدائري وبشرة خمرية وصدر عريض ومعدة رشيقة ،يرتدي زي رسمي (بدلة) سوداء ، يسير بخطوات ثابتة في إحدى طرقات المقر ، قاصدًا إجتماع..

-تفضل يا حضرة الرائد - ..

كان هذا صوت العميد مصطفي رئيسه المباشر من خلف طاولة مستديرة ، ويجلس معه اثنين آخرين فيما يعتقد أنهما أعلى منه رتبة .

جلس الرائد شريف معهم على مقعد متحرك .

رشف شريف رشفة ماء من كوب أمامه ثم اعتدل في مقعده ، وبدء الحديث ..

- جميعنا يعلم حجم المخاطر التي تحيط بهذه العملية ، ومدى الاستفادة التي ستحصل عليها البلد من نجاحها، لكن هناك عائق يهدد هذا النجاح ...

صمت شريف للحظات حتى قاطع هذا السكون صوت رجل يبدو أنه أعلاهم رتبة قائلاً : العائق هو الشخص المنفذ للعملية ..؟

كأن الشعر الأبيض الذي غزى رأس هذا الرجل يمده بالذكاء بجانب الوقار الذي صبغه به ، وكأن كل شعره تشهد على عملية قام بها ، ومغامرة خاضها ، وطلاسم أشرف على فك شفراتها.

بلي .. العائق أن معظم عملائنا معروفون إلى حد ما بالنسبة لباقي أجهزة الاستخبارات الأخرى .

إذا لابد من اختيار شخص من خارجنا ينفذ المهمة ..

هذا ما أشار به الشخص الرابع بالغرفة والذي له نفس رتبة شريف .

شعر شريف بأنه لن يجد صعوبة في توصيل ما يريد ، وشرح ما بجعبته ، لكنه للحظة فهم أنهم أول ما سيفكرون فيه هو فرد من القوات المسلحة ، بالطبع لأنها الأكثر ثقة ، كما أن الجهاز لن يأخذ وقت طويل في تدريب الشخص المختار ..

إذا .. فمن المرشح يا شريف ؟

بالطبع جئت إلينا باقتراحات جاهزة ، لا يوجد وقت لدينا ، حيث وردتنا معلومات من مصادرنا عن نية الموساد هو الآخر في التحرك .

العميد مصطفي لا يقول ما قاله إلا ثقة في شريف ، فهو تلميذه النجيب ، والذي يتوقع أنه في يوم من الأيام سيحقق من النجاح أكثر مما حققه معلمه ، فهو يتوقع بأن يكون شريف جهز تقرير بأسماء

عددًا من ضباط الجيش ، بل ودرس حالتهم جيدًا قبل حضور هذا الإجتماع .

نظر شريف إلى عين مصطفي للحظة مرسلاً رسالة مفادها أن هذه العملية ستخرج عن المعتاد ..

قام شريف من مقعده ووضع قرص في جهاز الكمبيوتر الموجود بالغرفة وشغل شاشة العرض ، ليظهر عليها صورة لضابط شاب معلقًا عليها هذا النقيب بحري .....

ثم يتبعها صورة أخرى لأخر، نقيب بالصاعقة ، وغيره رائد مظلات ، ثم أغلق شريف الجهاز وأخرج القرص ، وجلس وأعين الحاضرين تنتظر أن يقول لهم من الذي اختاره من الصور ، وسبب تفضيله عن غيره من أقرانه ، ليخرج شريف بحديث غير متوقع ..

كل هؤلاء الشهداء قتلوا بنفس اليد السوداء ..

دهش الجميع من كلمه " شهداء " ، وإذا كانوا شهداء لما تم عرض صورهم ؟!

وما هي العلاقة التي تربطهم باجتماعنا هذا ؟!

عرضت تلك الصور لضابط كانوا من أكفأ ضباطنا المسلحة ، وأحدث من تم تصفيته في الآونة الأخيرة ، تم تصفيتهم بواسطه فرقة الاغتيالات بالموساد .

كانت تلك الجملة صادمة للحاضرين ..

كان أول تفكير خطر لي تأمينًا للعملية هو أن يقوم بها فرد من خارج الجهاز ، وبالطبع أول المرشحين هم القوات المسلحة ، لذا وجب عليّ أن أبحث عمن يصلح فوجدت عائقين أمام تنفيذ أحد أفراد الجيش هذه العملية ، أولهما أن إذا تم استعداء ضابط سيتم تبليغ قائده بأنه في مهمة ما خاصة بنا ، أو مهمة في إدارة أخرى وهذا يلزم معرفة شخص آخر بتلك الإدارة .

قاطع الرجل ذو أغلبية الشعر الأبيض حديث شريف ، متحدثًا بنبرة دلت على عدم اقتناعه بالحديث ، قائلاً :

سنخبر القادة بالجيش بأنها مهمة مكتبية وتنتهي الأزمة التي لا أراها عائقًا ..

هز العميد مصطفي رأسه تأييدًا لهذا الإقتراح وتبعه الشخص الرابع ، هنا بدا لشريف أن الأمر دخل نطاق خطر، ولن يتم له ما يريده في المهمة الموكلة له .

صمت أراح فيها ظهره للمقعد ونظر لأعين الجميع حتى حثوه على التحدث عن العائق الثاني . قام شريف وأمسك بقلم ورسم دائرة صغيرة على لوحة مثبتة على قائم لغرض الشرح ، ثم أزال اللوحة ووضع غيرها ورسم دائرة أكبر بكثير تكاد تملأ اللوحة ، ثم اخذ اللوحتين ووضعهما على الطاولة أمامهم ..

وتحدث مشيرًا إلى الدائرة الصغيرة ..

هذه الدائرة تشمل جهازنا والجيش وكافة الرجال المهمين بالدولة ، هم تحت العدسة دائمًا بالنسبة لكافة أجهزة الاستخبارات .

ثم أشار إلى الدائرة الأخرى وقال :

هذا هو الشعب بعين تلك العدسة أيضًا ، فإذا كنت تبحث عن نقطة داخل دائرة أيهما تفضل ؟؟!

ثم عاد لمقعده وجلس بثقة ، سكون خيم على الغرفة ، فهم الجميع ما يرمي إليه شريف ، لكن هذا غير ممكن أن نوافق على هذه المخاطرة ، مدني يقوم بالعملية ، يعني ذلك الكثير من الوقت ، يعني حجم المخاطرة التي ستعد مجازفة سيزيد .. قاطع السكون هذا صوت زميله الحاضر ..

شريف .. تعلم حجم المخاطرة بتجنيد مدني ، كما أنه يحتاج لوقت طويل ليتم إختياره جيدًا ، ووقت آخر ليتم تدريبه ..

شريف كان قد أعد نفسه جيدًا لهذه الأسئلة ، وقد قطع شوطًا لا بأس بهذا الإتجاه .

أعلم هذا ، لذلك بدأت في البحث وضيقت النطاق فبحثت في سجلات التجنيد عن شخص قضى فترة تجنيده بالشكل المثالي في الإلتزام بالتعليمات والتدريب الجيد ، فوجدت عددًا لا بأس بهم ، وأحتاج الآن إلى الموافقة على هذا الإقتراح ومراقبة المرشحين جميعًا .

هنا تحدث أكبر الحاضرين مقامًا بنبرة عالية إلى حد ما بجملة واحدة .

لا ، لا ، لا يمكن .

نظر شريف إلى معلمه وسنده دائمًا بنظرة قرأ فيها مصطفى طلبًا للدعم ،

مصطفي لديه من السنون ما يكفيه للثقة بشريف وبعقله الراجح ، كما أن ملف الآخير ملئ بالنجاحات والشجاعة .

تحدث مصطفى إلى رئيسه الجالس بجواره عن يساره الغاضب للغاية من إقتراح شريف منذ قليل ..

إذا تكرمت وسمحت لي سيادتك في الاختلاف قليلاً في الرأي وتوضيح أمراً ..

هز رأسه في إشارة منه أن تحدث ، فأردف مصطفى ..

عندما طلبت مني ترشيح أحد أفضل الضباط لهذه المهمة ، لم أجد أفضل من شريف وعلي ، دائما كلل النجاح مجهودهما في كافة ما تم تكليفهما به ، والأن أرى أن اقتراح شريف لا بأس به ، وأنه معدل المخاطرة فيه أقل من مخاطرة أن يقوم بالعملية فرد من القوات المسلحة ، كما أن علي سيكون معه أكثر الفترة القادمة ، فالعملية التي معه الآن اوشكت على الانتهاء .

هذه الكلمات كانت بمثابة نقطة تحول في رأي مدير العميد مصطفى بالعملية وباختيار منفذها .

السكون يخيم على الغرفة ، وشريف يترقب القرار ، وعلي يشاهد دون تعليق ومصطفى ينتظر نتيجة كلامه ، ويتمنى أن تكون النتيجة غير مخزية أمام تلميذه ، والقائد ينظر إلى اللوحتين الموضوعتين على الطاولة أمامه ويدقق النظر ..

لحظات هي الأطول على شريف فهو المتحفز الأكبر لهذه المهمة كما أنها تحدي بالنسبة له وأقل مشكلة فيها هي اختيار المنفذ ، يتبقى تفاصيل التنفيذ وكيفية الدخول والخروج .. كل هذا لا يهم شريف الآن فهو دائمًا ما يفكر للخطوة التالية فقط ، حتى ينتهي منها فيبدأ في الأخرى ..

أخيرا تحدث القائد ..

أريد متابعة دقيقة لكل المرشحين وتقارير يومية عنهم ، وأريد أن ينتهي هذا في وقت قريب فنحن بحاجة إلى الوقت .. ابتسم الجميع لهذا القرار ، وسارع شريف ومصطفى بتأكيد ما يريد لينتهي الإجتماع ..

اليوم الخامس..

الجزء الأول..

آخر يوم لي بالمهمة.. آخر يوم بالأرجنتين.. اليوم ينتهي مشواري.. أشعر كأن الهواء لا يقوى التحرك أم هذا مجرد تخيل.. اليوم غريب ليس كباقي الأيام التي قضيتها هنا لا بل ليس كباقي أيام حياتي..

اليوم السماء ملبدة بالغيوم، والشمس تظهر على استحياء بين الحين والأخر، وأنا أراقبها هي وتلك الأخرى التي تهيئ نفسها لإطلاق سيول علينا نحن البشر بالأرض.

نومي الليلة الماضية كان غير مريح ولا أعلم السبب .. سأقابل رومينا في تمام التاسعة مساءًا في أحد المطاعم القريبة من الفندق ، سنتناول العشاء ثم تسلمني المادة وينتهي كل شئ .

بعد تناول الإفطار بغرفتي. أخذت طريقي من الشرفة إلى الفراش ذهاباً وإيابًا، لا أستطع النوم ولا أجد ما يلهي ، ففكرت أن أقرأ بأحد الروايات الرومانسية القصيرة التي أحضرتها معي حتى أتخلص من

قلقي هذا ، بعد ساعتين أنهيت فيهما معظم الرواية ، جهزت حقيبتي ثم اغتسلت فشعرت بانتعاش كنت أبغاه منذ الصباح ولم أشعر بنفسي إلا عند الثالثة عصراً .. غلبني النوم .

تبقى من الزمن ست ساعات .. ست ساعات تفصلني عما جئت من أجله، وما جعلني أتحمل مشقة وعناء السفر من قارة لأخرى تاركاً خلفي أمي وسارة وشقيقتي وشقيقي.

لكن القلق عاد لي ثانياً . فقرأت شيئاً من القرآن الكريم لعلني أهدأ ، ثم توجهت إلى الإستقبال وتناولت كوبًا من القهوة التي أعشقها عشقاً .. أثناء جلوسي رأيت رجلان يجلسان أمامي وبين لحظة وأخرى تزيغ أعينهما وتنظر إليّ ، ثم لوحا لرجل خارج من الفندق وقالا ما أشعل بداخلي نيران القلق "شالوم" وهذا يشير إلى إمكانية أنهم إسرائيليين .

الجزء الثاني ..

بأحد المطاعم الفاخرة يدور حديثي مع رومينا بالميعاد المحدد ..

-أشك بأن ماركوس يشعر بشيئا غريباً .. فاليوم كان على غير عادته

وطبيعته معي .. كما أنني أشعر بأن هناك من يراقبني منذ أن تركته .

شعرت وكأن عيناها الزرقاء فقدت بريقها من الخوف الواضح بهما ،

كما أن نبرة صوتها مهزوزة ودقات قلبها تسمع عن بعد .

لم أكن بحالة جيدة لأسمع كلماتها هذه ، فأنا أيضاً أشعر بمن يراقبني،

لكنني لن أزيد خوفها . لن أخبرها .

حاولت أن أستوضح منها الأمر لعلي أقف على بعض التفاصيل التي قد

تفيدنا في هذا الوقت ، هل هناك من يعلم بإمكانية الاستخدام

العسكري للكربون ؟

-لا ، فلم يتم الإعلان سوى عن استخدامها الطبي فقط ..

- عندما علمتي بإمكانية استخدامها بالمجال العسكري .. هل أخبرتي

أحد قبل إنضمامك معنا ؟

- لا .

-أنتي صحفية .. وما أعلمه عن الصحفيين أنهم لا يخفون سراً .

ضحكت ساخرة وقالت :

بين الحقيقة والإعلام تباع الأوهام .

الجزء الأخير..

بأحد الكافيهات المطلة على الخليج .

سلمتني إياها في ذلك الصندوق وطلبت منها أن تتوخي الحذر بأيامها المقبلة ، فأخبرتني أنها ستنهي علاقتها بنا وتبتعد عن هذا العالم وستسافر إلى ألمانيا، ثم انصرفت بعد أن أعطتها شريحة توجد عليها مذكراتي طلبت منها أن ترسلها إلى بعد عودتي إلى مصر وفي حالة تعرضي لأي شئ ترسلها إلى المخابرات ، لمعت عيناها عندما سمعت ما قولت وشعرت بتوترها ازداد ثم بنبرات متقطعة يملأها القلق ، سألتني عن امكانية تعرضي لأي خطر وأنا خلال ساعات قليلة للغاية سأكون في طائرتي المتجهة إلى مصر.

لم أشأ أن أخبرها بما في صدري من عدم إرتياح وخوف ، فعندما رأت اصراري على عدم قول أي شئ لم يكن أمامها سوى الرحيل ، وبقيت أنا حتى انصرفت بالواحدة ليلاً حتى يسعفني الوقت لإتمام ما تبقى من

مهمتي ألا وهو التفجير ثم أسرع إلى المطار لأصعد للطائرة المتجهة إلى مصر في تمام الثالثة والنصف فجراً.

ها أنا أخرج من المطعم وأتوجه إلى السيارة التي استأجرتها اليوم .. هذه اللحظات الأخيرة الحاسمة لا يتوقف جسدي عن القشعريرة كلما تذكرت سارة وأنني سأراها غداً ، حيث أنني أقسمت على نفسي أنني سأراها بمجرد وصولي الإسكندرية سواء كان ذلك صباحاً أو بالليل المتأخر ، وجهها و وجه أمي لا يفارقا مخيلتي.

بطريقي من باب المطعم وحتى السيارة لمحت أن الطريق لا يوجد به سوى سيارة تقف بالجانب الأخر منه وبها تقريباً أربعة أشخاص، لكنه جوًا عاصفًا ومطرًا غزيرًا و يبدو أنه ازداد سوءًا ولا يبشر بتحسن قريب.

أدرت محرك السيارة وانطلقت، لتنطلق على أثري تلك السيارة الواقفة بالجانب الآخر.. عرجت إلى أول طريق جانبي لعلي أتأكد من تتبعها لي، فوجدتها تبعتني أيضاً.. زدت السرعة ففعلت هي الأخري. سيارتي

بها(Gps) الذي أخبرني أنني لابد وأن أعود إلى الطريق الذي كنت أسير به بالبداية لكي أصل إلى موقع المادة، لكني لا أستطع وأخشى تقليل سرعة السيارة، فبحثت عن بديل لهذا الطريق فوجدت، حيث يوجد مفترق طرق على مسيرة خمسة عشر دقيقة بالسيارة.

الطريق يزداد سوءاً والرياح تزداد صفيرها، والطريق يزداد ضيقاً بعد ضيق، لكن لا بديل عن الضغط على الوقود. تزداد السرعة لحظة بعد لحظة، دقيقة بعد دقيقة، وبالطبع تزداد سرعة السيارة الأخرى .

بدأت أشعر أنني أتوغل داخل مصيدة .. فلا أجد سيارة أو شخصاً في هذا الطريق ولا أجد أي مخرج وسرعتي تجاوزت المائة والستون بطريق ملئ بالمياه .

السيارة بدأت تترنح يسارًا لكنني سيطرت عليها بصعوبة بالغة ..

الطريق يزداد طولاً كأن لا نهاية له. أين مفترق الطرق الذي أخبرني بهGps ؟!

نعم ، يخبرني أننا أقتربنا منه ولكني لا أراه.

تباً.. تبًا ، تخطيته ..

لن أستطع العودة.. قلقي وسرعتي المتهورة أثرت علي تركيزي..

يا الله.. يا الله..

"Gps" يخبرني أن الطريق مغلق في نهايته ولا يوجد طريق جانبي أخر أتخذه.. لا يوجد حل سوي العودة لذلك المفترق الذي تخطيته منذ قليل.. ما الحل ؟ماذا أفعل ؟

كيف أخرج ؟!!

بدأت أخفض من سرعتي ، تلك المطاردة أخذت وقتاً ..توقفت بعد ما يقرب من عشر دقائق بنهاية هذا الطريق الملعون ، لتتوقف السيارة الأخرى ..

أنتظر من أي فعل ممن بالسيارة ، لكن الوقت يمر ولا يخرج من السيارة أحد، لم يتبق وقت لأنجز عملي وألحق بطائرتي، ولا أحد منهم يخرج، كأنهم يتلاعبون بأعصابي، لكني لن أضعف ولن أخرج من السيارة فالوقت تخطى الثالثة .. هنا فتحت الأبواب الأربع لتلك

السيارة الملعونة أيضاً وخرج منها أربعة أشخاص، لكنهم ليسوا كأي أشخاص ، ثلاثة منهم أجسادهم كإنها منصات إطلاق صواريخ ، أجساد بنيت من أجل أن تهدم وتفسد .. أنظارهم حادة ، مصوبة تجاه سيارتي .. لحظات وقال أحدهم بصوت أخترق المطر وصفير الرياح - أعطنا المادة ونتركك تعود لوطنك سالماً .

- قالها بالعبرية .. ثم عادوا إلى السيارة .

وضعت يدي على المسدس الموضوع بجانبي لكنني تراجعت ، فإذا أطلقت على أحدهم هناك احتمال كبير أن يطلق عليّ آخر قبل أن تصله رصاصتي لذا تراجعت ..

أأسلم المادة..!!!

لا.. لن أسلمها..

كيف أسلم لهم ما يساعدهم علي زيادة مجازرهم !!

أأواجهم .. ؟

لا ، لن أستطع القضاء عليهم، لست علي هذا القدر من المهارة القتالية.

إذاً يبقي حل وحيد .

أدرت وجه سيارتي ليكن في مواجهة سيارتهم، لكن بصعوبة بالغة نظراً لضيق الطريق..

تذكرت من بمصر ونظرة أمي لي بآخر مرة رأيتها بها ، تذكرت وجه سارة الملائكي البرئ فشعرت ببضع الأدمع على فراقهم .. ثم هدأت نفسي وأطمئن قلبي عندما طلبت من ربي وترجيته أن يجمعني بهم مرة أخرى وتكن سارة بديلاً لي عن الحور العين ..

نظرت بساعتي فوجدت أن تبقى ما يقرب من دقيقة على موعد الطائرة ، الموعد الذي كنت سأعود فيه إليها لأراهم بها.. انطلقت بسرعة كبيرة في إتجاه السيارة التي بدأت هي الأخرى تسير باتجاهي ، سور عن يميني وبنايات عالية عن يساري فلا مجال لي سوي الاصطدام ، و يبدو أن

صبرهم قد نفد ، لكنهم لا يتوقعون أنني أنوي الاصطدام .

قلت لنفسي بصوت عالي :

- إذا كنت فشلت في مهمتي .. فلابد أن يكن لي رد فعل على هذا الفشل .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

مقر الاستخبارات العامة المصرية الربع الاول من عام ٢٠٠٩.

وحدث الإنفجار الضخم الذي هز بيونيس آيريس لوقت طويل ، وأستشهد به آدم .. وتفحم الأربعة الذي كان منهم ماركوس . .

هذا ما أخبرتنا به رومينا في رسالة دون أن تخبرنا عن مكان المادة ، ووجدنا بهذه الرسالة شريحة كتبت بها ذكريات أدم ، اخبرتكم ببعض هذه الذكريات بحديثنا هذا والباقي ستعلمونه قريبًا إذا كان في صالح العملية ، صمت لحظة ثم تابعت قائلاً :

_ ولم نعلم أين توجد الآن ، فقد غادرت الأرجنتين يوم هذه الحادثة ، وانقطع اتصالنا بها ، لكنها كانت حريصة على إخبارنا كل ما فاتنا هناك عن آدم ، فسردت لنا بالرسالة الأخيرة هذه كل شئ حدث طيلة الخمسة أيام .. تحدثت عن معاناته التي عاشها لمخاطرته بحياته دون علم أمه وسارة .

أيضاً سأخبركم بما حدث بالمطار قبل السفر، ذهبت خلفه لكي أراقبه لأنني كنت أخشى أن يتردد وينسحب فجأة قبل السفر ، رأيت على وجهه

خوف وقلق يشاطرهما حزن ، وتردد كثيراً على الهاتف الموجود أمام المطار حتى أنه هم أن يتصل بأحد لكنه لا يضغط سوى على رقمين أو ثلاثة ثم يعود إلى مقعده بصالة الإنتظار.

كان يريد إخبار سارة أو والدته أمراً ..

شعرت وقتها بمعاناة داخله كبيرة .. وندمت على معاملتي الجافة له ، لكن كان لابد من هذه المعاملة حتى يقوى على التعامل مع أي موقف يحدث معه أثناء العملية.

- وهل أخبرتم عائلته الحقيقة بعد موته ؟

- لا ، أخبرناهم بأنه توفي بحادث سيارة. وأعطيناهم جثة مشوهة مجهولة كي يدفنوها .. فكنا نخشى أن تريد والدته رؤيته للمرة الأخيرة

-وخطيبته .. حرصت على مقابلتها بنفسي وأخبرتها بعد الحادثة بثلاثة أشهر الحقيقة وكم كان دائماً يتحدث عنها .. أخبرناها لأننا أشفقنا عليها بعد موته حيث أنها تعرضت لحالة اكتئاب قوية.. لكن عندما

علمت بالحقيقة تخطت هذه المرحلة.. كما أنه تقديراً لآدم أخبرناها ، لأننا نعلم مكانتها عنده فلابد أن يبقى بنظرها كبير.. لكنها لم قررت عدم الزواج بعد علمها بالحقيقة.

- وما سبب فتح ملف هذه العملية الآن وإخبار ثلاثتنا به يا سيادة المقدم ؟

-كنت وقتها رائد وكنت على علم بكل لحظة لهذه العملية .. لذلك جاء لي الأمر بأن أنقل لكم كافة التفاصيل وأكون مشرف عام على هذه العملية ، وقد تم اختياركم للمشاركة في هذه العملية بناءًا على ملفاتكم المشرفة التي تخطت تعدت ملفات زملائكم من ضباط الجهاز.. والأن سنبحث عن الكربون بالأرجنتين ولا يوجد لدينا أي قابلية للفشل لأي سبب هذه المرة .

- ومن الذي سيقوم بالعملية هذه المرة .. ؟

_ مازال البحث جاريًا عن شخصية قادرة على التنفيذ..

في النهاية احب اشكر كل من ساعد في إخراج هذا العمل إلى النور

وأخص بالشكر

ا. ايناس ناصر

مديرة دار لوغاريتم للنشر والتوزيع

وورشة عمل فريق شخبطة

م. محمد يوسف م. عبدالرحمن فودة

وشكر

للكاتب أحمد الملواني